عزيزة فرسان
للحب درجات
رواية

رقم الإيداع القانوني :

2021MO3946
ISBN: 978-9920-34-254-4

إهداء :

إلى كل من ضاعت في العشق مهجته

إلى كل من أحب، فصدق، فجن، فمات.

الحب هو أن أعاتبك وتعاتبني على أصغر الأخطاء، هو أن أسامحك وأن تسامحني على أكبر الأخطاء..

محمود درويش

" هل أنت مستعدة للحب ؟

قبل أن أرفع سبابتي عن شفتيك الورديتين اسمحي لي أن أخبرك أنك ما إن تجهري بقبولك حتى تكوني قد خطوت أولى الخطوات في درجات الحب، وأن لا مكان للتراجع أو الانسحاب، ستعيشين حياتك ترتقين هذه الدرجات بشغف العشاق إلى أن تبلغي شأوا عظيما يؤهلك لقطف ثمار الحب اللذيذة التي لا يتذوقها سوى الراسخون في الحب والحذاق في أمور الحس والشعور..

رهام. أعطني يدك وادلفي معي للدرجة الأولى هناك تخبرين ألوانا جديدة من الشعور لا عهد لك بها.."

" كمال"

الحب . هو آخر توقعاتها بعد حياة هادئة غُيِّبَ فيها كل ما يؤجج العاطفة ويوقد نيرانها في النفس، وَأْدُ العاطفة عوضته بالسعي الحثيث لتحقيق رغبات أهلها وأمانيهم، فلطالما ظنت أن الانتماء الحقيقي هو انتماؤنا للأهل فحسب، لم تمتلك بعد وسائل هذا النجاح، لكنها كانت تضع الخطط وتشيد قصورا في الخيال، لم تظن يوما أن تلك القصور ستهدمها معاول العاطفة عندما تتّقد بعد خمول، ولا أن تكتب هذه الأحداث بريشة هي روحها المضطربة تغمسها في مِحبرة هي فؤادُها المتفجر ألما وكمدا.

عانقته اليوم وأنا أكاد أرتعش سرورا، السرور الحقيقي هو أن تعانق شخصا تحبه وتهيم به مغمضا عينيك ناسيا العيون الفضولية واستهجان المارة وضحكات بعضهم، كنا في طريقنا لمدينة بني ملال لنحضر أخته من محطة المسافرين، في الطريق لاحظت اضطرابه في السياقة وهو الهادئ في كل شيء، حدست أن أمرا ذا شأن يشغله فاستفسرته أن يشركني في اضطرابه، أسر لي أنه يفكر أن نعجل خطوبتنا نظرا لبعض الأسباب، لم يكن الأمر مخيفا أبدا، فراقني الأمر وابتسمت كالأطفال خصوصا أن أمي أبدت موافقتها بعد عناء، فأمي تخاف، تشك، تحذر، تتوجس، تخشى كل شيء وتخشى أني بزواجي ستختفي كل الأحلام التي بنيناها كأسرة معا، كما تخشى أن أنشغل بحياتي بعد أن كرست كل تفكيري للانشغال بحياتي معهم..

اتصلت بوالدتي لأزف لها خبر تعجيل تاريخ زيارة الرجل الذي أحببته رفقة والديه، لم يكن هناك رد ينم عن سعادة، لكنها حاولت إخفاء شعورها لمدة لم تكن بالقصيرة، لم أعر الأمر اهتماما، فوالدتي صعبة المراس لكنها إنسانة تحب سعادة ابنتها و تضعها فوق كل اعتبار رغم كل شيء. تأملني كمال، لاحظ التوتر الذي غشيني ، فهو عادة ما ينتبه لأدق التفاصيل، لكني بررته باستيحائي يوم حضورهم، فصار يمازحني أكثر بمطالبته لي بالجلوس بجانبه وأنني من سيقدم صينية الشاي يومها لينظر إلي حتى تحمر وجنتاي، لكني أدركت أنها طريقة للتخفيف من توتري قبل الوصول عند حسناء أخته .

نعمة أن يكون في حياتي مثل هذا الإنسان الذي يحترم أفكاري رغم بلادتها، ويحب تفاصيلي رغم نقصانها، ويغفر زلاتي رغم كبرها وفداحتها، حتى أنه لا يكف عن محاولاته في إسعادي بشتى الطرق .. أليس لمثل هذا الإنسان تطمح كل امرأة ؟

أكملا طريقهما وهما يستمعان مستمتعان لأم كلثوم وهي تصدح بالأطلال كعادتهما، يده اليسرى على المقود ويده اليمنى تمسك بيدها اليسرى كأنهما توأم ولد في حالة نادرة لم يفصل فيها الجسد عن أخيه، روح واحدة طيبة تجمع بينهما. ها هي محطة سيارات الأجرة، حيث سينتظران حسناء الأخت الحنون لكمال، فتاة متزوجة وحامل بطفلها الأول ما تزال في مقتبل العمر لكن تفكيرها أكبر من عمرها رغم أنها أصغر من رهام سنا. رغم فارق السن كانت رهام تستحيي منها بشدة، ربما لأنها أخت كمال أو لأنها قد استقبلتها مرارا وتكرارا بكرم، وحب، وابتسامة فياضة بصوتها الأنثوي الحساس دون اعتبار للصفة التي لم تحصل عليها بعد. نزلت حسناء من سيارة الأجرة فوجدتهما ينتظرانها، قبلتهما معا وهي تحكي بلغتها الأمازيغية مع أخيها مسرورة بقدومه ليقلّها إلى بيتها الذي اشتاقت إليه، أو لنقل إلى زوجها المحب حسن، لكن قبل ذلك قرر كمال أن يقوما بجولة في محلات بيع الملابس والمجوهرات قبل الانطلاق، كانت مترددة حينها، فهي تشعر بالحرج أمام أخت كمال، رغم أنها أكثر إنسانة تتمناها العرائس نسيبة، ربما تستحي لأنها لم تحصل على صفة زوجة أخيها بعد.

حاولت التغلب على حرجي حينها بالخوض معها في أحاديث نسائية عن المجوهرات واللباس الشرعي الذي اقترحه علي كمال، شعوري وأنا أختار لباسا خارجيا و داخليا رفقتهما جعلني أظن أني قد التقطت الحياة بين كفي، وأن كمال أصبح لي أخيرا، فلو طلبت فرحتي يومها بأغلى الأثمان لما بعتها، مرت الأمسية على ما يرام وإحساسي بالسعادة لا يعلمه بعد الله سواي، انطلقنا في طريق العودة وظل كمال مشغولا بالدردشة مع أخته إلى أن وصلنا المدينة حيث تسكن حسناء وحيث سنسكن مستقبلا، إنها مدينة الفقيه بن صالح، المدينة التي سيشتغل فيها كمال بعد انتقاله والتي لطالما خططنا للعيش فيها كلما ممرنا بها في طريقنا إلى القرية.

لم أستطع يومها العودة دون أن أشتري حلقات ذهبية من نفس المدينة لأزين بها أذناي، لقد كانت فرحتي بهما لا توصف، وضعهما لي كمال بكل حب ورقّة أمام أنظار النساء الموجودات في المحل، رمقتني بعضهن بنظرات شريرة حسودة لم يزل أثرها إلى اليوم. إذ تساءلن ما بال هذا الرجل يتخلى عن جبروت الرجال ورجولتهم فيعامل هذه الصبية بكل هذا العطف والحب، لا أًحقد من امرأة حرمت دلال الزوج وعطفه وهي ترى امرأة أخرى يدللها زوجها، هذه المقارنات تولد الحسد في النفوس الضعيفة المريضة، تجاهلت تلك النظرات وانشغلت بإحساس السعادة والأنوثة الذي دب في جسدي من جديد أنساني حينها أني التقطت طاقة سلبية منهن، فكأني كنت شبه رجل قبلها، ذلك الرجل الذي لطالما حاول الزمن زرعه في رغم أني بالفطرة أجمل امرأة.. نسيت أن أذكر أني لم أتزين بمجوهرات ذهبية من قبل ولا فكرت في ذلك ولا استهواني الأمر، لم أتنبه يوما للأمر لولا أن كمال قال لي ممازحا :

- ينبغي أن تتزيني بالذهب فجزيئاته تتسرب مع المسام وتصير جزءا منك فتزيدك أنوثة، ربما تتخلصين يوما من فكرة أنك البنت البكر التي ولدت لتلعب دور الرجل في حياة أهلها.

ثم أضاف ساخرا :

- لا أريد أن أتزوج رجلا

شعر أن كلامه أغضبني فضغط على راحة يدي بيده، كان يقوم بهذه الحركة كتعويض عن قبلة الجبين حينما نكون أمام الناس والملأ..

قصة حبهما ألهمتني ودفعتني لكتابة أسطر هذه الرواية بعجالة، فقبل أن تحدثني رهام عن تفاصيل خطبتهما التي انتظرتها بفارغ الصبر، سردت علي بدايات هذا الحب الكبير، الذي بدأ بنفس تاريخ خطبتهما الآن، فقد مر على تاريخ اعتراف رهام لكمال بحبها

له سنة كاملة، نعم، على غير المعهود في مجتمعنا كان الاعتراف الأول من طرف الفتاة بدل الفتى، وربما هذا مؤشر على أن علاقة هذين الاثنين كانت مختلفة منذ البداية..

أرهقني العمل في بداياتي، لقد كنت حديثة التوظيف، ولا شغل لي سوى تحضير الجذاذات وتصحيح الفروض وإمساك النقط... روتين يتكرر كل صبيحة ومساء، وزاد من حنقي وغضبي المستمر أني لم أوفق في الاستفادة من الحركة الانتقالية، لقد أثرت في نفسي كثيرا، فلطالما انتظرت عبوري إلى الضفة الأخرى من حيث جئت، لكن الحظ لم يحالفني هذه السنة رغم أن سؤال الحكمة من توظيفي في هذه القرية وعدم انتقالي منها لم أجد له جوابا يهدئ روعي، مرت علي فترة شعرت فيها بالحزن الشديد لكني سرعان ما تذكرت أن لي حياة خاصة يجب أن ألتفت إليها، فتحت يومها تطبيق الواتساب لأطلع على الرسائل الواردة بعد أن تغيبت عنه لمدة طويلة، فإذا بي أجد رسائلا ليست بالكثيرة، لم يثر انتباهي فيها سوى رقم لم أعتد رؤيته، فتحت تلك الرسالة بعد تردد لأكتشف محتواها، لم يكن في الرسالة التي وصلتني سوى سطرين يعرف فيهما كمال بنفسه ويطلب مني فيهما أن أجيبه عن بعض الأسئلة المتعلقة بالمؤسسة التي أشتغل فيها، كان ردي لبقا محترما يرحب بالأستاذ وأسئلته، لكن ذاكرتي لم تعفني من محاولة تذكر هذا الأستاذ، وقع لي خلط بينه وبين شخص آخر، لكني صرت بين الفينة والأخرى أفكر في أمره دون أن أشعر بما أقوم به إلى أن انشغلت بعملي كالعادة فغابت عني رسائله من جديد.

فتحت التطبيق بعد أيام لألقي نظرة على الغريب المألوف، فإذا بي أجد رسالة أخرى منه، لكني هذه المرة أحسست بشعور غريب يقارب السعادة ويبتعد عن الخوف، فلطالما كنت شخصية تعشق الاهتمام. اتصل كمال بعد أن مرت ثوان قليلة على قراءة رسالته الجديدة التي يطلب فيها مني أن نتحدث صوتا عبر مكالمة هاتفية، لم أستطع الرفض أبدا، فلا سبب مباشر يدفعني لذلك، أخذت الهاتف وقمت من مكاني إلى غرفة غير التي يوجد فيها والداي، قمت بالرد مباشرة بعد جلوسي لأسمع صوتا أعرفه جيدا، لا خلط لي الآن بين

الشخصيتين، إنه ذلك الصوت الذي سمعته في قاعة الدرس وبحثت عن صاحبه فتاه ضائعا بين بقية الوجوه عند توقفه وظل عالقا بمسمعي حتى وجدته في حلقية للنضال، إنه كمال صاحب الصوت الجميل الذي أثار اهتمامي في حصة جمعت بين فوجينا في مركز تكوين الأساتذة، سررت بالأمر جدا دون أن أظهر له ذلك، عرّفني بنفسه وهو يكرر اعتذاره ظنا منه أنه يزعجني باتصاله. تحدثنا مطولا كأن حداثة تعارفنا لم يكن لها وجود، أو ربما إعجابي بصوته حال دون الانتباه للأمر، لقد علمت حينها أنه قد انتقل في الحركة الأخيرة إلى مؤسستي، ذلك ما جعله يلجأ للسؤال عن ظروف العمل فيها و طبيعة القرية جغرافيا وثقافيا وديموغرافيا، فلم نلاحظ أن الحديث قد طال لما يزيد عن ساعة ونصف، حيث اضطررنا إلى قطع الاتصال درْءا لأي ريب.

ثمة سرا في صوته، صوته من تلك الأصوات التي تتلقاها الأذن بشغف وتطرب لها النفس لتستزيد منها، لم تتوقف أذنا رهام عن رد صدى صوت كمال وعيناها معلقتان بالسقف كأنها تحاول العثور عليه هناك، لقد كان لهذا الصوت الندي الشجي الدافئ أثر كبير في نفسها، كأنه صوت محب لامس أعماق حبيبته، أو عطش في روح آنسة تذكرت أنها في حاجة لسماع صوت يروي ظمأها، بل إنها بحة صوت كنغمة تائهة في تجويف ناي كما وصفته من قبل، استفاقت من غفوتها على إثر صوت أمها وهي تستعيذ من شر هذا الصوت الذي فعل بها العجب من أول مكالمة لها معه، ذلك الصوت الذي تتمنى سماعه مجددا في قرارة نفسها، لكنها تنكر الأمر أشد ما يكون الإنكار. لم تعلم رهام يومها أن لباب الحب علامات، يقفوها الفطن، ويهتدي إليها الذكي، وأولها إدمان صوت، والأذن باب النفس والهوى. ولعل كمال فطن بذلك، فكرر اتصاله مرة أخرى بشكل أقل حدة من الأول..

كانت لي علاقات أشغل وقتي بها، ولا أظن أني في حاجة لشخص آخر في حياتي، فلا داعي لأنتظر اتصالا آخر من الأستاذ كمال، فغايته كانت عملية، وقد مر على آخر اتصال له عدة أيام، يبدو أني تجاوزت حدود التفكير فيه.

عرف العالم حينها ضجة كبيرة بسبب انتشار وباء كوفيد 19، انتشرت على إثرها أخبار إيقاف الدراسة وفرض الحجر الصحي على أغلب دول العالم، ومنها المغرب أيضا، وقد تحقق الأمر فعلا بعد بضعة أسابيع من انتشار الخبر. وجدنا أنفسنا بين أجنحة الكورونا فارضة أجندتها ملقية علينا بظلالها التي حدّت كل حريتنا، حيث أصبح كل شيء مؤجلا إلى ما بعدها، فُرضت الكمامات والإجراءات الاحترازية، وقد وصلت نسبة الوفيات الى ذروتها في غضون أسبوعين.. حقا كان الأمر مخيفا عند الكل، فتم فرض الحجر علي أيضا من قبل والدتي قبل فرضه من قبل السلطات، نظرا لخوفها علي من الإصابة، فلطالما كنت محط رعاية الكل منذ الصغر، بدأ الملل يدب بين أضلعي رغم أني كائنة تتأقلم مع الجدران ولا تتبرم منها، فلا أحد منا يحب أن يسجن كرها، لذا قررت أن أعود لمواقع التواصل الاجتماعي لأستكنه وضع البلاد، وأعرف حال العباد، فإذا بي أجد طلب صداقة مرفوقا برسالة قصيرة يقول فيها الغائب الحاضر :

- (ألن تقبلي طلب صداقتي أيتها الأميرة ؟)

ابتسمت رهام ابتسامة رقيقة كزورق حالم يسعى نحو شط الأمان، وشمس ثانية أشرقت في عز الظلمة، لم تدرك الحمقاء أن الإعجاب هو التوأم الوسيم للحب، قبلت طلب الصداقة بكل فرح وحماس، وصارت تتبع خطاه وتقرأ كل منشوراته، وتلغي الأولوية عن كل رسالة وصلتها من غيره، لم يعد هناك شغل شاغل لها سواه، يكتبان يوميا بشكل اعتباطي وعشوائي ويتحدثان عن مواضيع تخلقها منشوراته تارة وتعليقاتها تارة أخرى، وكان أخطر ما يملكان هو الوقت..

لم تكن رهام فتاة يصعب الوصول إليها، لكن كان من الصعب أن تعطي قلبها لأحد حسب قولها، أو ربما هذا ما كان يتهيأ لها انطلاقا من بعض تجاربها الفاشلة، حتى أن ذلك تكرر في خطاباتها مع كمال في كل مرة، ادعت سلطة مطلقة على الذكريات، وأنها القادرة المتمكنة من حذف ومسح وسحب ما تريده وفي الوقت الذي تريد، لم تعلم أن ثمة علاقات كالنقش على الحجر حتى عوامل الطبيعة لا تمحي هذه النقوش بيسر بل تظل صامدة

لقرون، العلاقات الفاترة التي لا تتوغل في الأفئدة وحدها يمكن نسيانها والإطاحة بها من الذاكرة، أما العلاقات التي نعطي فيها كل شيء فتحيا ولا تموت إلا بموت أصحابها..تعجب كمال من كلماتها رغم عدم تصديقه لما تدعيه، لكنه أصر على أن تجعله تلميذا لها، تعلمه كيفية النسيان، واستبدال ذكريات الأماكن بذكريات جديدة لخلق فرص حديث جديدة ..

أظن أن ما قلته لكمال حول النسيان صائب، لا يجذر بنا التعلق بأشخاص، وأماكن وذكريات لا أصل لها في حياتنا، فالعائلة هي الأصل والانتماء الذي لا سلطة لنا على تغييره، كل شيء يخرج عن دائرتها يسهل التخلي عنه، هكذا كانت قناعاتي، الولاء وكل الولاء للأسرة فقط. لاحظت أنه قد غاب لأيام بعد حوارنا ذاك، لم يكتب لي كعادته، ولم يسمعني كلمات الغزل التي يجيدها، هل اشتقت له ؟ لا يعقل أن أشتاق لشخص لا أعرفه !

لم تتوقف أناملي عن الإيحاء لي أن أراسله إلا بعد أن كتبت سطرا أسأله فيه عن سبب غياب التلميذ عن أستاذته، فجاء الرد بلا تأخر يجيب فيه بلسان عذب يجعل قارئه يهيم عشقا في أسطره، ولا يكف عن اتهامها بنهم، قائلا :

- "التلميذ لم يرد إزعاج أستاذته."

لكني لم أجد بدا من أن أعلن عن شوقي لأحاديثه رغم تعجبه من الأمر، مردفة القول بطلب التحدث عبر الواتساب لسهولته. توالت الأحاديث بيننا لكن بشكل مخفف، فبالرغم من إعجابي بلباقته إلى أني أعي تماما أن الأمر مجرد خدعة، فكل الرجال يسلكونها ليحصلوا على مبتغاهم، لكني لست غبية بما يكفي للسقوط في غياهب جبه.

بداخلنا رغبات يتم كبتها.. رغبة في الحديث دون وعي.. ورغبة في البوح دون توقف.. ورغبة في الصمت أحيانا.. والأجمل رغبتنا في الحب. تلك الرغبة التي قتلتها رهام بعد أن خبرت كيف تمتد يد الخيانة فتخطف أحلامها الوردية من قبل، حيث لم يعد لديها متسع للخذلان. ظنت رهام أنها تحصنت من الحب داخل قلعة منيعة يحرصها أهلها فقط، أم رؤوم، وأب حنون، وإخوة يملؤون المكان حبا وضجيجا، ولم تعلم أن حرصها ذلك قد بدأ

بالتلاشي وسرعان ما سينكشف بعد أن دب الملل والقنط في نفسها من تكرار نفس الأوجه والأصوات أمامها، وما الحب سوى انبعاث من موت العادة وملل الألفة وانعدام المعنى.

لم يعد هناك ما يشغلني و يضفي طابع الحيوية على حياتي، فقد اعتنيت بشعري وجسمي ووجهي وطهوت بعض الأطباق وقمت بمشاركتها مع صديقتي رغد، ولم يعد هناك ما أنجزه، لكن مللي لم يزل بعد، لم أجد بدا من أن أحمل هاتفي لأدردش مع رغد أو أحد أصدقائي، فرغد هي صديقتي المفضلة، الفتاة التي ظهرت في حياتي فجأة دون فائدة، لكننا نحب بعضنا بشكل غريب رغم اختلافنا، فتاة جذابة، عطوفة، قوية، ومستقلة، تملك الكثير من الأصدقاء على عكسي لكنها بالرغم من ذلك لا تستطيع تعويض حبي في إحداهن، أما أنا فلا أملك صديقة سواها.. تراجعت عن رغبتي في التحدث مع رغد وقررت التحدث مع غيرها ولما لا كمال نفسه، سألته عن حاله، فلا بد أن يكون قد أصابه ضجر بسبب الحجر أيضا، ففوجئت باقتراح لم أعهده منه، مكالمة هاتفية يأخذني فيها في رحلة خيالية دون أنبس ببنت شفة، طالبا مني أن أكتفي بالإصغاء فقط، لم أكن أعلم أن تلك الرحلة التي سأنزع فيها ثوب الملل والسأم رحلة لا رجوع منها.

استلقيت على ظهري متحررة من كل أطرافي بشكل انسيابي، مغمضة عيناي، أسمع صوتا عذبا، خافتا، يتقن اللغة العربية ويلتهمها، يطلب مني الاسترخاء والتخلص من كل وعي بالأشياء المحيطة بي، لم تمر ثواني حتى وجدت نفسي حافية القدمين فوق شاطئ رماله ذهبية، ماؤه يعكس زرقة السماء وشمسه ساطعة تخترق قعره، أتحسس رماله بأطراف قدماي، أرتدي فستانا أبيضا شفافا يظهر ملامح جسدي، وشعر طويل أسود مسدول، ألتفت يمينا ويسارا، أبحث عن صاحب الصوت الذي أسمعه، إنه صوت ألفت سماعه، صوت أعشق نغماته الفيروزية.. تقدمت خطوات ثقيلة نحو الأمام باتجاه ماء البحر يرشدني إليها صوت كمال وتعليماته.. لمحت طيف شيء طائر بالسماء، يتضح شيئا فشيئا، لونه أبيض يقق، يشبه الحصان يشق جوانبه جناحين كبيرين ريشهما يصدر صوتا يهز أركان الأرض والسماء، وتتوسط ناصيته عصا بطول الدراع، إنه يشبه البراق.. انحنى

الحصان الطائر على أطرافه منتظرا مني الصعود كأنه رسول من السماء جاء ليحملني من الأرض إلى أطهر مكان، اتبعت إرشادات كمال عند صعودي هذا المخلوق الجميل دون خوف كما طلب مني، فوجدت نفسي أحلق فوقه في أعالي السماء حيث السحاب وزرقة الفضاء.. يتطاير شعري في الهواء من سرعته، وتغمض عيني من شدة الرياح.. أنزلني بعد جولة السماء في جزيرة خلابة.. تحيط بها أشجار صفصاف عالية كقلعة تحرصها الملائكة، وضعت رجلي فوق الأرض مرة أخرى ليختفي الحصان الطائر بسرعة البرق، لم أعر الأمر اهتماما، فالمكان ساحر، وبه كوخ قش تفوح منه رائحة عطرة، سحرني المكان فسرت فيه تائهة أبحث عن شيء أتمنى رؤيته.. أمشي تارة في اختيال كطفلة راقها صفاء الجو وخلوة المكان وأركض تارة أخرى في سعادة وحبور.. وقفت لبرهة أتأمل مياه البحر الصافية وأداعب أمواجها الدافئة فإذا بي أشتم رائحة بشرية تحوم حولي، ويد تتحسس كتفي بلين، وتبعد شعري عن رقبتي، وخذ ملتحي يلامس خذي برفق، متحدثا بهمس تام أفقدني السيطرة على مشاعري(ألم تتعرفي علي؟) كيف لي أن أعجز عن التعرف على شخص مثلك يزورني صوته كل ليلة في منامي ! ارتجفت يداي ورجلاي كلما اقترب مني جسده، وارتفعت درجة حرارة جسمي واتقد لهيبه حتى ما صرت أقوى على المقاومة.. فحاولت الهروب مسرعة من بين يديه، لكني وجدته متشبثا بي كل التشبث ممسكا بيدي ساحبا إياها في قوة تغلبت على ضعفي حتى سقطنا معا بالقرب من شجرة تلقي بظلالها على الأرض، جسده الثقيل ممتد فوق جسدي الصغير يقابل وجهه الساحر وجهي بشغف، وعيناه تكاد تلتهم تفاصيلي البسيطة وشفاهه الملتهبة تكاد تلامس شفاهي فتتذوقها.. تسارعت أنفاسي فاشتد نبضي وأغمضت عيناي، فطلب مني كمال الاستيقاظ ..

تمنيت لو لم تنته الرحلة هنا، لكن لكمال رأي آخر وله في ذلك مآرب يعرفها وحده. قطع الاتصال مباشرة دون أن يسمح لي بإلقاء كلمة واحدة، طالبا مني في رسالة قصيرة أن أنام بسرعة لأنه سيزورني في حلمي..

اتخذت علاقة رهام وكمال منحى آخر، لقد أصبح من زوار أحلامها كل ليلة، ومشاركيها نور النهار كل يوم، محادثات طويلة تدوم ساعات دون انقطاع، اشتد معها الخوف بعد كل اتصال، فصارت تدعوا الله خشية من أن تحبه، لكنها أحبته منذ تلك الليلة من حيث لم تدري، فالخوف من الحب هو الحب نفسه .

لم يتركا موضوعا إلا وناقشاه، فالفراغ الذي نسجت ظروف الوباء خيوطه ملآه ببعضهما البعض، تركا كل ما حولهما من أجل سماع صوتيهما فقط، لم يكن هناك شيء أهم من أحاديثهما، حتى أن رهام ألغت كل انشغالاتها أمام رغبتها في سماعه، اختلطت مواضيعهما بين التافه والجاد، والمستقيم والجارف، وبين الواقعي والخيالي .. في بداية تعارفهما ألقتهما أحاديثهما في كل المواضيع، حتى خاضا في موضوع الزواج وأهميته، عبرت رهام عن رفضها التام له، فلطالما كانت مؤسسة الزواج بالنسبة لها خدعة مقننة تحت درع القانون، تسلب فيها حرية المرأة وتوضع تحت جناح إنسان قد يكون بينه وبين الصلاح أميال، يقرر مكانها ويتملك جسدها مقابل صك عبودية، لم يكن لكمال ذا رأي مخالف عن رأيها، فهو الآخر لطالما كرر جملة غريبة على مسامعها:

"أنا أيضا لست أهلا للزواج عزيزتي "

لم يكن رفضه للزواج بالتعليل نفسه الذي أعطته رهام، بل على العكس من ذلك فهو يعي أهمية الزواج، والمسؤولية العظمى التي تلقى على عاتق الزوجين، لذلك يرى نفسه غير قادر على تلك المسؤولية في مقابل مسؤوليات أخرى ملقاة على عاتقه، كيف لرجل عان كل تلك المعاناة منذ طفولته أن ينجب معذبين آخرين في الأرض؟ لكن بالرغم من ذلك، لم يترك فرصة إلا وحاول فيها إقناع رهام بأهمية الزواج لها، فهي امرأة، والمرأة تحتاج سندا لها بعد والديها وبعد أن يرحلا، كان لكلام كمال تأثير قوي على رهام، أصبحت فعلا تفكر في الأمر ولو بنسبة ضئيلة، لكن وضعها المادي يجبرها أيضا أن تلغي الفكرة لأقصى مدى، فهي حديثة التوظيف، والكل ينتظر منها إنجازات عظيمة لتحقيق السعادة في البيت، سيارة، ومنزل في ملكيتهم، وأثاث جديد.. يبدو الأمر أكثر من الصعب على فتاة، لكن طموحها كان

أكبر من ذلك، فسعادتها تكمن في إسعادهم، ووهم الزواج عائق لتحقيق ذلك. أما عدم تفكير رهام في الزواج لم يمنعها من تكوين علاقات وهذا هو الخطأ الذي ارتكبته ولم تندم عليه بعد، رغم إعطائها أهمية كبرى لما يحسه الإنسان، إلا أنه لم يسلم قلب من الكسر بسببها، وها هي تحاول إنهاء علاقة قديمة مع شخص أحبها بشغف .. هو سليم.

يبدو أني لم أعد أحب سليم، فقد انطفأت جذوة الحب بيننا، وزال وميض علاقتنا منذ فترة، صرنا لا نتحدث إلى أوقاتا متباعدة جدا، لطالما أحببته وطقت تصرفاته وتحكمه بي، واحتميت به كلما تاقت نفسي للعزلة، حتى أني حدثته عندما أردت الصمت... لقد كان بمثابة شخص من العائلة رغم عدم انتسابه لها، وأحبه الكل دون أن يروه، لم يترك أمرا إلا وحققه من أجلي، لكني اكتشفت أني كنت معجبة بتعامله لا مُحبّة لشخصه، نختلف في الكثير من الأمور، أولها حبه للتملك عكس عشقي للحرية، تحدثه عن المستقبل، وإلغاء اللحظة التي يعيشها، تذكيري بضرورة الزواج في كل صيف، حبه لي بدرجة تخنق الأنفاس، وولعه بالتحدث عني أمام الآخرين كأني إنجاز حققه ...

قد حان وقت إخباره أني لم أعد أحبه، بل أني لم أحبه يوما، وأني ألفت وجوده في حياتي كباقي أفراد عائلتي لا غير، لا أتحدث عن الألفة التي قال عنها مصطفى محمود أنها حب ورفع للكلفة، أن لا تجد نفسك في حاجة للكذب، أن تصمتا أنتما الاثنين فيحلو الصمت، وأن يتكلم أحدكما فيحلو الإصغاء... بل عن الألفة التي تجد نفسك مضطرا فيها للحفاظ على ذلك الشخص فقط لأنه يناسبك ويناسب الكل، حيث تجد نفسك في حاجة للكذب واختراع الأعذار، حيث تتحدثا كرها كي لا يطفو غياب الحب إلى السطح فيفضح المستور، ويصبح الصمت سيفا يقطع حبال الهواء وترددات ...

لن أقوم بالأمر من أجل كمال، فهو شخص حديث المعرفة بي، لكني سأفعل ذلك من أجل نفسي التي طمرت في هذه العلاقة، من أجل نفس لم تعد تحس بأي رابط ولو بسيط تجاه ذلك الشخص رغم حبه لها، فكرت مليا في الطريقة التي سأعبر بها عما أحسه دون ترك جرح غائر في قلب شخص سقاه، دون صدمة تكسر فؤاده إلى أشلاء، اتصلت به بعد غيابي لمدة طويلة، ظننت أنه سيثور بوجهي كما تستدعي طبيعة أي إنسان يغار على حبيبته، لكنه أجابني بكل حب ولباقة، يسألني بلهفة عن سبب غيابي عنه، حتى لومه كان مغلفا بالشغف والحب، أو هكذا هيئ لي، لم أستوعب كيف استطعت أن أتخلى عن شخص يحبني بهذه الطريقة ؟ أليس من الغريب التخلي عن صفات فقدتها النساء في الرجال ؟ أسئلة لم تمنعني من إخباره بحزم أني سئمته، وأني مللت وجوده، وأن إصراره على أن يحبني بتلك الطريقة قد خنق الروح داخلي . فأغلقت الهاتف مباشرة دون ترك مجال له في التعبير عما يحسه أو يفكر فيه، وأنا أعلم تماما العجز الذي أصابه، فالعجز ليس بفقدان طرف من الجسد أو حاسة، أو فقدان مال أو رفيق... بل العجز فقدان الروح والقدرة على التعبير عن بركان هائج من المشاعر المترادفة، العجز أيضا عن تبرير التخلي عنا.

أخبرت رهام أمها بما فعلته، فعرضتها الأخيرة لكل أنواع اللوم والتقريع، فسليم زوج مناسب لابنتها، وشخص ميسور ماديا يحقق طلباتها ولن يطمع في راتبها الهزيل، لطالما ألغت أمها كل الاعتبارات الإنسانية والوجدانية أمام ما هو مادي، أو بشكل صحيح، إلغاء كل ما يمكنه أن يخلخل استقرار عائلتها وأحلامهم الصغيرة، فكل شيء جائز في سبيل تحقيق هذه الغاية، حتى التضحية بمن نحب إذا كانوا خارج دائرة تلك الأسرة، فهي من رسخت نموذج انعدام الحب عند رهام، ومن دعمت رواسيه وأعمدته . ومن خلال ما حكته رهام يبدو أن دور سليم لم ينته بعد، بل إن رده سيكون قويا.

لا يوجد ما يستدعي الخوف إطلاقا، فأنا على وعي تام برجاحة عقل سليم، بل متأكدة أنه سيتقبل الأمر ويتخطاه، عدت مباشرة بعد تلك المهاتفة إلى التحدث مع كمال، ومحاولة نسيان التوتر القائم بيني وبين أمي. لم أتوقع من كمال طلبه اليوم، لقد أصر على إجراء

مكالمة مباشرة صوتا وصورة، أصابني الذهول التام أمام طلبه، وحاولت ثنيه عن ذلك مرارا، لكنه ما فتئ يتصل بإصرار، وجدت نفسي مضطرة أمام قبول طلبه رغم وجهي الشاحب، وشعري السخام المنكوش المبعثر، شعرت بالخجل الشديد حتى احمرت وجنتاي فأنا امرأة كثيرة الاهتمام بمظهرها لدرجة الهوس، لكن أديم كمال أنساني كل ذلك الخجل، فعلا إنه اسم على مسمى، وقد يتعجب الكثيرون من وصفي له هكذا، أبيض البشرة، حلو القسمات، نائر العينين، متوهج الشفتين، كثيف الشعر، يتميز بوسامة هادئة تنبعث منها ابتسامة تسلب الأرواح إلى عالم لا رجوع منه. لم أر أبدا وجه رجل بمثل تلك البراءة، براءة طفل راشد أدمنت رؤيته منذ ذلك اليوم، وتجل واضح لكمال الخالق فيه وجماله. لم نستطع قول شيء مهم بسبب الخجل الذي أصابنا، واكتفينا فقط بالنظر والضحك جراء غرابة المنظر الذي يجمعنا، حتى قرر قطع الاتصال فجأة، يبدو أنه صدم من هول المنظر الذي قابلته به، فقد كنت مضحكة بالفعل، لكن لا أنكر أن سعادة أشبه بسعادة الأطفال غمرتني، أحسست بشيء ما يداعب قلبي الصغير، فأغمضت عيناي لبرهة أتحسس فيها ذاك الشعور جيدا لعلني أميزه، لم يخل وجهي من الابتسام منذ تلك اللحظة، ولا شك أن كل منكم قد جرب ذلك الشعور، حيث تشعر بأن قلبك ذاك العضو الصغير قلعة واسعة تلعب فيها الرياح، فتعبث بكل أثاثها لتعيد ترتيبه من جديد .

لم أسلم من لسان أمي رغم كل السعادة التي رأتها في وجهي، فهي تؤكد لي مرارا أنها لن تقبل لي غير سليم زوجا، بل تعاملني بعنف وجفاء شديدين، تظن أن بتصرفاتها تلك ستقف في وجه ما لا يجوز حدوثه، لكني التمست لها الأعذار، فأمي لم تخبر شعور الشعور باقتراب شيء نخافه ونوده في الآن ذاته، لم تخبر شعور السعادة التي تأتينا دون أن نطلبها، وشعور التعلق بشيء لم ننو التعلق به، كل ما تخبره أمي هو كيف تعتني بأطفالها وتوفر لهم سبل العيش الكريمة، تظن أن كل ما نحتاجه في هذه الحياة قد يوفره المال، نعم بالمال نستطيع شراء منزل، وبالمال نستطيع شراء سيارة واستئجار سائق ليقودها، وتعيين خادم لقضاء أغراضنا، وبالمال نستطيع شراء ما يوفر لنا سبل الراحة المصطنعة.. ولكن بالتأكيد لا يمكن للمال أن يمكنك من استئجار شخص ليحبك، ليعطف عليك، ليحمل عنك ألمك

قبل أن يشاركك سعادتك، والأهم استئجار شخص يناسب تفكيرك وتطلعاتك فترغمه على حبك، فسعادتنا الداخلية لا تأتي من الأشياء المادية التي نملكها فهي لا شك قابلة للزوال في أية لحظة، ومع مرور الوقت قد تصبح تلك الأشياء عادية مألوفة في حال لم تزل، لكن سعادتنا الحقيقية تكمن في قيمتنا المعنوية، تلك القيمة التي تتحقق فقط بالحب الصادق... تجاوزت عن تصرفاتها بانشغالي بكمال، يبدو أنه قد ألف وجودي في حياته أيضا، لم تمض ساعة إلا وعبرنا فيها عن شوقنا لبعضنا البعض، بكلمات تكاد تنفجر عطرا من أثر الحب، كل تعابير الشوق والهيام بادية علينا رغم غرابة الظروف التي نشأ فيها هذا الحب، حب نما بين أضلع الكورونا.. تمنعه من الخروج إلى أرض الواقع .. من الضياع بين الأراضي والسهول.. والسباحة فوق أمواج البحور.. حب يعجز أصحابه عن التصريح به.. عن البحث عن وقت وموقف مناسبين للتعبير عنه.

أكتب رسالة قصيرة أعبر فيها عن حبي له مرارا وتكرارا، فأجد نفسي أضغط على زر الحذف بكل ما أتيت من قوة، كيف لي أن أحبه بهذه السرعة ؟ هل يا ترى رسائله الجميلة لي هي السبب أم إتقانه في إلقاء الشعر علي ؟،أم أن اشتراكنا في المهنة طفى معه التفاهم إلى السطح؟ أم يا ترى وجهه البريء الذي سحر قلبي وجعله يهيم عند كل مرة يراه فيها ؟ ... كلها أسئلة لم أجد لها جوابا مقنعا يبرر ما أشعر به، فكل ما أحسه قد تعدى حدود الكلام، لكني مقتنعة كل الاقتناع أني فعلا أشتاق لرؤيته أشد ما يكون الشوق، شوق لن تنطفئ جذوته إلا بعد اللقاء . كنت أجلس في شرفة منزلنا الصغير في تلك القرية النائية كلما أردت التحدث معه أو التفكير فيه، فقد كان المكان الوحيد الذي أستطيع أن أختلي فيه بأحاسيسي التي تكاد تفيض فيراها كل من يحوم حولي، شرفة واسعة تطل على مساحة واسعة لصناعة الياجور ومواد البناء، بالقرب منها ضيعات كبيرة لزراعة الخضر وإنتاج الزيتون، قرية فلاحية جوها حار ينعكس على شخصيات سكانها، تأملتها لأول مرة منذ قدومي من مدينتي إلى هنا، لم أحظ بفرصة من قبل لأجلس هنا، والأجمل في المنظر ظهور شاهقات الأطلس المتوسط من بني ملال وصولا إلى جبال أزيلال، اكتشفت بعدها أن للمكان سلطته، لكن تلك السلطة مرتبطة لا محال بما نشعر به، أو بما تميل له النفس

والهوى. أدمنت الجلوس هناك وأنا أسمع صوتين فقط، تارة صوت الموسيقى الشاعرية وتارة أخرى صوتا أعشقه، صوت يأخذني إلى أبعد من هذه الجبال، إلى حدود السحاب، أسمع معه أجود ما في الشعر والغزل، وأحسن ما في الخطب والأمثلة الأدبية، وأعجب ما في القصص...

قررت الليلة أن أخبر كمال عما يدور في خلدي، بل سأعلن مباشرة وبكلمة واحدة أني أحبه، نعم أحبه، كيف يخفى على عاقل ما أشعر به، إنه الحب يا سادة، إنه ذاك الرنين المغناطيسي الذي يسحبك إليه بلا مقاومة، إنها تلك الكيمياء المتبادلة بين اثنين.. ذلك الشعور الذي يجعلك ترى أن لا عيب في التعبير عنه، بعيدا عن كل ما وضعته الثقافة العربية من زيف، بعيدا عن كون الاعتراف بالحب لصيق بالرجال أولا، فأنا أعي جيدا أن كمال إنسان منفتح جدا، لا يعير التقاليد والأعراف اهتماما، بل يعترف اعترافا جبارا بكل ما أنجبته الأحاسيس والمشاعر، فليكن حبنا مختلفا حتى في من اعترف فيه أولا، مختلفا عن باقي العلاقات التي اتبعت العقل، وليدا من قلب عاقل، يدرك أهمية وجوده، يدرك أن سلطته أكبر من سلطة العقل.

فكرت في أن أسأل كمال -قبل أن أعبر له عن حبي له- عما يحسه اتجاهي، عن سبب شوقه لي، وسبب تعلقه بي لهذه الدرجة، وسبب تحدثه معي رغم أنه كان بإمكانه التحدث مع غيري ومعرفة الجواب غير المهم الذي كان يبحث عنه، لكنه أجاب كعادته " الأمور الجميلة إذا تم تفسيرها بطلت، والحروف تموت حين تقال " لم يكن جوابه شافيا بالقدر الذي يحفزني على الاعتراف، بل جعلني أشك في مسألة حبه لي، إنه رغم صدقه وعدم بيعه الوهم لي يظل إنسانا غامضا، لا تستطيع سبر أغواره بسهولة، لا تكاد تميز بين حبه وطبعه وعدم اهتمامه، لكني علمت فيما بعد أنه من النوع الذي لا يصرح بحبه أولا، بل ينتظر أن ينتظر الاعتراف من الآخر، ومتى ما حصل على هذا الاعتراف انطلق في حلبة الحب بأقصى ما يملك من قوة لا ينوي التوقف، هكذا هو في حبه وفي علاقاته رغم أن حبه لي مميز لا شك عما سبق وتعرف عليه. تراجعت عما كنت أنوي قوله الليلة، بل عزمت على التخلي

عن الفكرة مطلقا، فالمرأة تستطيع الاعتراف بكل شيء بسهولة، إلا ثلاث، الحب والضيق والغيرة، فنحن في تلك الحالات نجيد الصمت أكثر، إن اعتراف امرأة بحبها لرجل قد يولد السعادة يوما ويبعدها دهرا، قد يجعلها في موقع قوة لبرهة من الزمن، فتنقلب القوة هونا بعد ذلك، يبدو أني كنت مندفعة فحسب . لكن كمال كثيرا ما كان يكرر على مسمعي أننا لسنا في حرب كي نتحدث عن القوة والضعف، عن الهزيمة والانتصار، بقدر ما كان يخبرني عن درجات الحب، إنها درجات يتسلق سلمها كل محب حسب مقدرته ولا يرقى آخر مستوياتها إلا من أحب بصدق، أولها هو ما نحن فيه، الصبابة، الشرارة التي تشتعل معها أول جمرات هذا الحب، إنه الشوق إلى اللقاء، التوتر والحرارة واللهفة إلى الحديث، وثانيها الشغف، حيث تلامس الروح روحها الثانية وتشعر بصدقها رغم البعد، ويأتي بعد الشغف الكلَف والولع، حيث لا تقو الروح بعدها على البعد، حيث تختلط الدماء والنبضات بمن نحب لا سواه، نرجو فيها التحرر، لكن اللوعة والحرقة تجعلك تتأرجح بين الرفض والقبول، بين الارتباط والانفلات وكأنك على شفا حفرة من نار والجنة على بعد خطوة، أما عن العشق والوجد فهو حينما يتجاوز الحب القلب والعقل فيتملك ما تبقى من الذات والجسد والروح، فنصبح نسخة أخرى من المحب تطوف أرجاء الكون، ثم درجة الهيام والنجوى، درجة يصبح فيها العقل آلة مبرمجة مدمنة على شخص يعطيه هرمون الدوبامين ما إن ينقطع ذاك الهرمون حتى تشعر معه أن الروح تسلب من بين أضلعك فتجري كالمجنون تبحث عن منقذك، وآخرها الشعور بالانتماء، الشعور بالرابط الحي الوحيد الذي يربطك بالأرض، ما إن يزل تزل معه الرغبة في الحياة.

مرت شهرين على اشتعال نار الحب بقلبيهما، حب في زمن الكورونا، حب تائه بين صفحات الرسائل الطويلة، ومتمنيات اللقاء، والشوق إلى سماع صوت بعضهما البعض بشكل مباشر، لكن اعترافهما لبعضهما بتلك الكلمة من أربعة أحرف كان أصعب مما ينتظرانه في نظرهما، أو ربما تمهُّل كمال عن اعترافه لها فيه غرض ما يريد تلقينه لرهام، فلطالما كان نصوحا واعظا لها في كل شؤونها منذ عرفته، حتى أنه كان سببا قويا في تصالحها مع أبيها وإصلاح علاقتهما عن بعد. فانحيازها لأمها أفقد الأب رغبته في البقاء

معهم في نفس المنزل، الأمر الذي لم تنتبه له إلا بعد أن أرشدها إليه، طبقت كل تعليماته بحذافرها، حتى أنها أصبحت تتحدث بلغته الرزينة، وأسلوبه الحجاجي المقنع، وأمثلته الخاصة، فكل أفراد البيت انتبهوا للتغيير الحاصل في لغتها حتى أصبح الأغلبية ينادونها بكمال، وتأكد الكل أنها تحبه بشغف، وكيف لهم ألا يلاحظوا هذا الحب الذي رسم على شفتيها الابتسامة طوال اليوم؟، حب توجست منه أم رهام بشدة، حب تحذرها منه منذ بدايته فقد شعرت أنه يهدد أحلامها النرجسية، لكنها تكاد تنسى الأمر لإدراكها أن ابنتها رهام سريعة التخلي .

يبدو أن الأحمق لن يسمعني تلك الكلمة رغم أنه يظهر حبه لي بمختلف الطرق، صار الأمر مزعجا، بل مثيرا للغضب، لكني هذه المرة لن أنتظر عزمه ولن أعير الأعراف اهتماما.

" كمال، أحبك " .

أخبرني مباشرة ودون تردد أو تعجب من الرسالة أنه يحبني أيضا بل يعشقني ويهيم حبا في، غريب أمر هذا الرجل، كيف له أن يخفي الأمر بهذه البرودة ؟ وأن يجيب بالبرودة نفسها كأنه كان متأكدا من حبي له، وكيف للأمر أن يصعب عليه وأنا التي تحدثه بالليل والنهار، وتخبره بكل تفاصيل يومها المملة، وترسل له صورها المبعثرة في كل حين، وتجيب على اتصالاته دون تأخر يذكر، كأن حياتها فارغة تماما يملأها هو فقط. لا أستطيع وصف ما أحسه، فكل التعب الذي عانيته نتيجة التفكير في ما ستؤول إليه الأمور اختفى في لحظة خاطفة، ارتسمت البشرى على وجهي والتمعت عيناي سرورا وفرحا، وغمرتني فرحة لم أعدها منذ فترة المراهقة. انهلت على صورته في هاتفي بقبلات طافحة بالحب واللذة، لذة الشعور بالحب، وتمنيت لو توقف الزمن المقيت الذي لا يتمدد ولا يتقلص بإرادتنا عن التقدم، واكتفت عيناي بقراءة تلك الكلمات فقط، وامتنعت أذناي عن سماع كل أصوات العالم المحيط بي، فتوسعت شرايين قلبي ليتسع الفؤاد فيحمل وزن من أحبه كله .

يتهلل وجه رهام وهي تتحدث عن تلك اللحظة، لحظة اعترافهما بحبهما، لحظة تورد خديها وبريق عينيها رغم طول المدة التي مرت على ذلك اليوم، كأن الحدث ما زال قائما، وكأنها لم تحب يوما، أو لعلها لم تحب يوما فعلا، حل شهر رمضان المبارك وما زال الحبيبان لم يلتقيا بعد، ولم يتعرفا على تفاصيل ملامحهما بعد .. أصرت رهام حينها أن تقطع عادة التحدث نهارا مع كمال، لقد اعتادت إعطاء فريضة الصيام حقها، فتقبل هو الآخر طلبها دون تردد، رغم معرفتهما أن الأمر صعب بعد إدمانهما الحديث معا، صارا يتعبدان إلى حدود ما بعد صلاة التراويح، فينصرفان إلى التعبير عما أصابهما من شوق خلال النهار، لكن المدة التي كانا يتحدثان فيها ليلا قصيرة جدا، فكمال كان منتظم النوم والأكل والمشرب، يعطي أهمية قصوى لصحته، ولا يحب إهمال رهام لصحتها، حتى أنه كان يوبخها من إسرافها ذلك، أما هي فكانت في كل ليلة تلغي كل ما من شأنه أن يعكر صفو تلك الدقائق التي تبقت لهما للحديث معا قبل نومه، تلغي عشاءها رفقة الأهل، وتلغي مسلسلاتها الرمضانية التي ألفت متابعتها فيما سبق، وتلغي حتى ورد القرآن الذي عاهدت على اتباعه..

وفي ليلة من تلك الليالي الرمضانية الطويلة حيث تسهر رهام في غرفتها بعد غياب كمال عنها، توصلت برسالة غريبة من رقم غريب يخبرها فيها أنها ستندم أشد الندم على ما فعلته، وأن الشخص الذي تحبه سيتخلى عنها كرها، انتابها القليل من التوتر لكنها سرعان ما حذفت الرسالة واستهزأت من محتواها وصاحبها الذي جزمت جزما أنه سليم، فرهام لا ينفع معها التهديد، فهي أكثر الناس معرفة أن سليم شخص ضعيف الشخصية، زيادة على أنها لم تترك وراءها ما يثير ذرة خوف بقلبها، لكنها لا تنكر خطأها عند إخفائها عن كمال ما حدث، إلا أنه لاحظ تغير مزاجها في اليوم الموالي، وسألها مرارا وتكرارا عن سبب ذلك، فأبت أن تعترف بما حدث، إنها تدري كل الدراية أن كمال بعيد عما حدث في ماضيها، أو ما يحدث أو سيحدث بسببه، فلم يجد هو الآخر سبيلا سوى أن يسعدها كعادته، فانغمسا دون شعور في التخطيط للقائهما الذي يفصلهما عنه أيام معدودات، فإجراءات الحجر ستنتهي بعد شهر ماي، ولم يعد يفصلنا عن عيد الفطر إلا يومين فقط، صرنا نخطط فيها

للعودة إلى المدينة التي قدمنا منها، فوجودنا هنا أو بالأحرى وجود أهلي معي في هذه القرية ليس بالشيء المستقر، بل كان خطوة مساندة لي منهم فقط، قل ما تجد أهلا مساندين مثل أهلي، فسبب قدومهم معي وتخليهم عن سنة من حياتهم الطبيعية المستقرة في مدينتهم حيث كل سبل العيش مريحة يعتبر تضحية تستحق التقدير، وأنا أقدر ما قاموا به لأجلي عندما كنت خائفة من العيش حيث أنا الآن، لكن حان وقت عودتهم للمكان الذي يحبون العيش فيه، لقد كان الأمر صعبا علي بالفعل، فأنا لا أستطيع العيش بعيدا عن أهلي، لكن قدوم كمال في الدخول المدرسي القادم هون الأمر علي، بل ساعدني على اتخاذ قرار عودتهم دون تردد .

انتهى العيد رغم معايدة الأهل عن بعد لظروف انتشار الوباء، لكن حالة الطوارئ مددت لعشرة أيام بعد، مما جعل الكل متوترا، حاولت حينها مرارا الحصول على رخصة التنقل من رئيس الجماعة، لكن الأمر كان دائما يبوء بالفشل، لم أكن أعلم حينها سبب إصراري على الرحيل إلى مدينتي، فالظاهر أنني مشتاقة إليها، لكن الخفي أني مشتاقة لرؤية كمال، فحينما نشتاق لأحد نحبه تصير الأمكنة ضيقة لا يسعنا فضاؤها، ويصبح العالم وكأنه خال من البشر، ولا أحد من الموجودين يملأ مكانه، والصباح يضج من فرط الشوق فقط... حاولت حينها تجاوز الارتباك الذي أعيشه بالانشغال بجمع أمتعة الرحيل، الرحيل صوب وجهتي الأولى حيث توجد كل ذكرياتي القديمة، وكل أصدقائي الذين عرفتهم وغبت عنهم لمدة سنة، رحيل ناقشناه بكل أنواع الأحاسيس المتضاربة، أخد ورد، بكاء ونحيب، شوق وخوف، سعادة وتعاسة... وانتهى بحزم أمتعتنا و تجهيز الأثاث بالشكل الذي يسهل علينا به حمله في الشاحنة، وجلسنا ننتظر الساعة التي ينتهي فيها الحجر الصحي، ننتظر ساعة الفرج التي انتظرها المغرب بأسره لمدة ثلاثة أشهر، أنتظر الساعة التي سأشد فيها الطريق من مدينتي تجاه بني ملال، وتجاه حبيبي كمال.

في اليوم العاشر من يونيو من السنة الماضية، يوم أعلن فيه رفع الحجر الصحي عن كافة الشعب، مع بعض الاحترازات الوقائية وإعلان حالة الطوارئ الليلية، لم نستطع الصبر

لحين حلول النهار، بل حملنا أمتعتنا في الشاحنة مع طلوع الشمس، وتركنا القرية هاربين باتجاه المدينة، حيث قمنا باستئجار منزل جديد، وألفينا العائلة كلها تنتظر قدومنا، تستقبلنا على أحر من الجمر بعد غياب طويل ظن الكل أنه كان ليطول لسنوات، لم يكن هناك ما يسعدني في الأمر أكثر من إطلاق صراح حبنا أنا وكمال المولود في ثنايا الحجر. حددنا بعدها مباشرة موعدا مستعجلا جدا بعد إعلان انتهاء فترة الحجر الصحي يوم الخامس عشر من شهر يونيو ، رغم صعوبة الأمر في ما يخص وسيلة النقل التي حددت طاقتها الاستيعابية في النصف فقط، ونفور الأغلبية من الخروج خارج مدنهم التي يسكنونها، إلا أن الأمر لم يمنعني من التخطيط لرؤيته. لقد وعدني برحلة خاصة لم أجرب مثلها من قبل، رحلة تنسينا عذاب الانتظار لثلاثة أشهر تامة، رحلة سأحتاج فيها لباسا رياضيا ومتحررا نوعا ما، اقتنيته قبل ذهابي بيوم، سروال جينز أزرق، وقميص قصير أزرق بلون السماء أخف زرقة من السروال تتوسطه سحابة بيضاء، وقبعة شمسية سوداء اللون طلب مني كمال اقتناءها، وحذاء رياضي أبيض ومريح، لا أنكر أني قد بدوت أكثر صبيانية رغم أنه لقائي الأول به، لكن ما كان يهمني هو تنفيذ طلباته فحسب...

استيقظت باكرا وتوجهت إلى محطة سيارات الأجرة بعد استغراق ساعة كاملة في تجهيز نفسي للقائه والتخلص من أمي بعد عناء طويل لإقناعها بالمغادرة في ظل ظروف الوباء، لم أشعر هذه المرة بالخوف من دوار الحركة الذي أعاني منه، ولا من طول الطريق الذي يتعبني ويشحب لون بشرتي، لقد كان كل ما يشغل تفكيري ويحتكره طوال الطريق سؤال واحد، كيف سأقابل كمال وكيف سألقي عليه أول تحية ؟ يبدو السؤال تافها، لكنه مهم جدا بالنسبة لفتاة في أول موعد لها مع حبيبها، فأنا لا أستطيع إخفاء رغبتي في معانقته، ولا أريد في الوقت نفسه أن أبدو جريئة من أول لقاء.

وصلت رهام إلى بني ملال وبالضبط إلى المكان الذي طلب منها كمال الوقوف فيه، كان المكان خاليا تماما من الناس، توجد في جنباته أشجار زيتون معمرة تكاد تغطي المساحات المتبقية، يختفي وسطها جسد شخص ينتظر قدومها، يرتدي قميصا أبيض يشع

معه بياض وجهه وسط لحية سوداء تزيده حلما ووقارا كقمر منير وسط هالته، وسروال جينز يميل إلى الرمادي مع حذاء رياضي هو الآخر أظهره في خفة ومرونة، توجهت رهام باتجاه كمال وهي تكبح بصعوبة ابتسامة تريد الثورة على الخجل الذي عم المكان، خجل أصاب كمال حظ وافر منه أيضا، أدار وجهه في الاتجاه المعاكس قبل وصولها عنده بخطوات لمحاولة السيطرة على الوضع، وضع الخجل الذي لم يتوقع مشاكسته في هذا الوقت بالذات... استعارت رهام جرأة لم تعتد عليها فألقت بيدها تصافحه ووجهها عليه دون تفكير تقبله في خديه كأنها تعرفه منذ زمن، يبدو أنه لم يتوقع أن تلقي عليه التحية وجها لوجه، رغم أنه ألف معانقة صديقاته في الجامعة كما أخبرها من قبل.

لم يكن كمال بالجرأة التي تخيلته بها، بل كان رجلا خجولا تتورد وجنتاه من شدة براءة ملامحه، لكن عطر الحب يفوح منه، لم أشعر أني بجانب شخص غريب ألتقيه لأول مرة، بل كأن حبنا قد عمّر سنينا تقارب سنين هذا الزيتون، لا أستطيع وصف شعوري بعد لقائه، فعلا صدق كمال حينما قال أن الأحاسيس إذا وصفت تموت .

تخلصت من كل ما يقيدني من كمامة وقنينة ماء وخرقة وضعتها فوق شعري، ووضعت قبعتي بعد فتل خصلات شعري على كتفي، ثم ركبت وراءه على دراجة نارية من الحجم الصغير، انطلق بي كالسهم الثاقب نحو وجهة أجهلها، تحيط بنا مناظر خلابة رغم فصل الصيف، وديان وقناطير وأراض خصبة التقطتها في كل جزء منها صورا لأخلد هذا اليوم، وصلنا لنقطة الوسط حيث توقف ليخيرني بين رقمين، أشار لي بإصبعيه الاثنين لأختار أحدهما ويعني بذلك أن الأول إذا ما اخترته فهو أقرب مكان وأبسطه ورقم اثنين يعني مكانا أبعد وأجمل، لم يكن اختياري منافيا لرغبتي، فتوجهنا نحو الاختيار الثاني، حيث أنساني سحر المكان غرابته، أكملنا الطريق مشيا بجانبنا يمينا سواقي الماء العذب، ويسارا أشجار الإجاص والزيتون ومختلف البساتين، شعرت أني داخل جنة فوق الأرض، لم يكن المكان ساحرا لطبيعته فقط، بل أضفى عليه تعامل كمال سحرا من نوع آخر، ظل

متمسكا بي مخافة السقوط ولم يترك يدي لحظة واحدة، مرة يمسكها بشكل متشابك، وأخرى يحيطها بخصري...

صرنا نتوقف عن المشي لحظات للاستراحة، نسترق فيها النظر إلى بعضينا، تتقابل فيها أعيننا مع القليل من الارتباك، ارتباك زاد كلما تحسس وجهي بيده، لمساته الرقيقة سقت عطش ثلاثة أشهر من الانتظار، بل سنين مضت ظننت فيها أني كنت في غنى عن كل شعور من هذا القبيل، شعور أسقطني في فخ قبلة كاد أن يغمى علي بعدها، كانت قبلة لا يليها ندم، قبلة ظلت راسخة لصيقة بتلك الساقية نتذكرها كلما زرنا المكان، أمسكت شفتاي بعدها في ذهول تام، وكأن كل ما حولي بدأ في الاختفاء، فارتفعت رجلاي من على سطح الأرض في اتجاه السماء، توقفت عن الشعور بكل ما لا يستحق في مقابل ذلك الشعور الذي لم أخبره من قبل، طعم حلو كقضمة شوكولاتة حلوة المذاق..

بدأت ملامح المكان المقصود تتضح لنا شيئا فشيئا، ويزول الشجر والنبات من طريقنا، إنها بقعة مائية ساحرة تقع بين جبال الأطلس المتوسط، مكان لا يعرفه سوى أبناء المنطقة، به صخور كبيرة حطها السيل من عل تتوسطها رقعة ماء كبيرة تنعكس فيها خضرة الطحالب والنباتات، يمتد ماؤها على طول الوادي منطلقا إلى السواقي التي كنت بجانبها ثم إلى الأراضي الفلاحية المجاورة، تسلقت تلك الصخور رفقة كمال بكل ما أوتيت من قوة، تعجبت من هذه الطاقة المفاجئة التي انبعثت من حيث لا أدري، فصرت أتسلق الصخور بلذة كأنما أتسلق برجا عالميا في باريس، وأستمتع بقطرات المياه كأنها من نهر ينبوع الحب، حتى صرت متأكدة أن كل ذلك التعب الذي أعلم أني سأناله الليلة قبل النوم لن يستطع ثنيي عن التقدم في المسير.

توقفنا أخيرا وبعد عناء كبير في مكان هادئ تماما تحيط به الأشجار الخضراء العالية والصخور الصلبة الكلسية والمياه المتلألئة كل من زاوية، اتخذنا مكاننا تحت ظل شجرة كبيرة وضعنا فيها متاعنا الصغير واستلقينا على ظهرنا لالتقاط أنفاسنا الهاربة وقهقهاتنا تعم المكان ضجيجا، لم يكن من السهل أن أساير كمال في جنونه، لكن الحب يصنع

المعجزات. ناولني بعدما استرحنا بعض العصير والبسكويت الذي اشتراه قبل أن ننطلق، مؤكدا على أن نستعيد طاقتنا ببعض السكريات، أول ما لاحظته أن كمال يعير أدق التفاصيل اهتماما، كثير الاهتمام، قليل الكلام، مشاكس أحيانا، وصريح بشكل مطلق، لكنه غامض بشكل ملحوظ، بالرغم من هذه الصفات لم يترك لي فرصة أشعر فيها بالملل. أنهينا الطعام ثم تمددنا على ظهرنا بجانب بعضنا البعض ننظر في اتجاه السماء، يتوسد كمال يده اليمنى ويضع اليسرى تحت رأسي، تأملنا زرقة السماء وأوراق الشجر تحت أنغام زقزقة العصافير وخرير المياه، تحولت نظراتنا بعد برهة للنظر في أوجه بعضنا، تبادلنا تلك النظرات الفاحصة، تفقدني فيها بشكل دقيق، وجهي وبشرتي وشعري وشكل جسمي وكل تفاصيله، معجبا ببعضي ومنتقدا للبعض الآخر ملاحظا ما يضر بصحتي أيضا، فقد كان شديد الاهتمام بصحتي مؤكدا على أني مسرفة في حق نفسي .

مضت الرحلة أجمل مما كانا مخططين له سلفا، لم يتركا موضوعا إلا وناقشاه، ولا شعورا إلا ووصفاه، ولا وعدا إلا وقطعاه، ذلك الوعد الذي ابتدأ بعقد خصلة من شعر رهام ورميها في المياه المتدفقة، طقس اخترعته رهام لربط قلبيهما معا وجعلهما يتدفقان حبا كتدفق هذه المياه التي لا تتوقف، أقدما على أمر ظناه سهلا، لكن ارتباطهما وعهدهما ذلك جعل عقد حبهما لا انفكاك له إلا بموت أحدهما أو كلاهما، فعقد خصلة شعرها ورميها بالنهر بعدما أديا طقس الإخلاص وأديا وعد الوفاء لبعضهما يعني عدم توقف حبهما متى ما لم يتوقف نهر أوشرح عن التدفق، وفي حالة ما توقف ذلك النهر أو أزيحت تلك الخصلة منه توقف ذلك الحب بطريقة ما.

انفصلا بعدها على عهد اللقاء مجددا، وعانقا بعضهما عناقا حارا تكاد عينا رهام تدمعان معه، ركبت الأخيرة في سيارة أجرة نحو المدينة لتنطلق صوب مدينتها من حيث جاءت وقلبها وروحها معلقين في المرآة على أمل أن تلمح طيفه لآخر مرة في هذا اليوم الجميل، قاربت الشمس على المغيب، ورهام لم تستطع أن تستقل وسيلة التنقل الثانية، فالوضع الوبائي حال دون حضور ركاب آخرين، فلم تجد بدا سوى أن تدفع ثمن السيارة جملة كي تصل في

الوقت المناسب تفاديا لأي مشكل مع والدتها، كل ما عانته أثناء وقوفها في المحطة لم يزل ابتسامتها من على أديمها المستبشر، وظلت تفكر طوال الطريق في وجه كمال وقبلته وسحر رحلته .

أضفت رحلتي مع كمال لونا آخر على علاقتنا، زال الغموض بيننا، وزادت جذوة حبنا اشتعالا، صرنا نفكر بعدها في لقاء آخر أجمل من الذي مضى، رغم أنه لن يكون بقيمة اللقاء الأول، الذي تسلقنا فيه للدرجة الثانية في الحب حسب تقديره، تأكدت من مسألة الدرجات بعد أن وجدت نفسي أفكر نسبيا في موضوع لم أفكر فيه من قبل أو بالأحرى كان مغيبا تماما من قائمتي، لقد فكرت في مسألة ارتباطي بكمال إلى الأبد، رغم أن عقلي يحاول صد هذه الفكرة مرارا، كيف لي أن أفكر في الأمر والكل ينتظر قدومي السنة المقبلة إلى مدينتي؟ كيف لي أن أقنع أمي بشخص لا يناسب مستوى تطلعاتها؟ بل كيف لي أن أعلن عن رغبتي في الزواج أساسا وأنا ما زلت لم أحقق حلما واحدا من أحلام أمي العاتية.

فكرت بالخروج عند رغد كمحاولة للهروب من دائرة كمال وما أصبحت أفكر فيه من زواج وارتباط لصد أفكار الجنون تلك التي أصبحت تراودني، أخبرتها بكل ما أحسه دون تردد، أحسست أني أفرغ شحنة من المشاعر التي كادت أن تفيض فيضا كبيرا، مشاعر قوبلت بالإيجاب من طرف رغد، لطالما كانت رغد شخصا عاطفيا بامتياز، تسمو بالمشاعر عن كل ما هو مادي، لكنها لم تترفع عن تقديم النصيحة لي بالتوقف عن حب كمال في هذا الحد، كأنها كانت على دراية أن حبي له قد يفوق حدود المعقول إلى ما بعد الجنون. تخلصت من كمال لبعض الوقت مرغمة عقلي على الخوض في نقاشات غيره وأنا أدردش مع رغد وأستمتع ببرودة الحديقة معها إلى أن اقشعر جسمي بعد أن سمعت كحة صوت ليس غريبا عني، رائحة فواحة لطالما شممتها، وظل شخص طويل عريض القامة خلفي، أمسك بيدي ساحبا إياي بقوة لأقف، إنه سليم، لم أتوقع قدومه بعد ما أخبرته أني لا

أستطيع أن أحبه بعد، كانت ملامحه توحي بالغضب، يحاول تهدئة نفسه بقوة أمامي، طالبا مني أن نتحدث على انفراد من رغد، لكن رفضي وإخباري له أني أحب شخصا آخر دفعه لصفعي حتى ارتسمت أصابعه على خدي مع تأكيده لي أني سأندم على التخلي عنه، وأني لن أكون لسواه إلا إذا ما سمح بذلك .

لم تكن صفعته إلا دليلا على أني لم أخطئ في التخلي عنه أبدا، من كنت أتخيله يوما زوجا لي كان مجرد وهم رسمته فأقنعت نفسي به، أعي جيدا أني قد جرحت كبرياء رجل، لكن هذا لا يعني أني مجبرة على تقبل شخص لا يناسبني، فالحب شعور لا نملك سلطة في التحكم به وتوجيهه، شعور لا نختار أصحابه، ولا نستطيع لوم من أحس به ولا لوم من اتبعه، عدت للبيت وآثار الصفعة بادية على وجهي بشكل واضح، لاحظت أمي وجودها رغم أني حاولت إخفاءها بالقليل من مساحيق التجميل، لم أجد مفرا من إخبارها بما حدث، لكني حصلت على رد صاعق منها وهي تخفي غضبها الدفين من فعلة سليم:

- " تستحقين "

علمت حينها أن أمي تحاول ثنيي عن علاقتي بكمال باتفاق مع سليم، لكن هيهات ثم هيهات، فاستعمال العنف معي لا يجدي نفعا بالمطلق، بل لا يزيدني إلا إصرارا ورغبة في التمادي، فكل مكروه مرغوب. فقررت بعدها مباشرة أن أعود للقرية التي أشتغل بها، تحت دريعة العمل قبل نهاية الموسم الدراسي بأيام، لكن هذه المرة سأقابل كمال للمرة الثانية، لقد قرر أن يقيم معي في نفس المسكن، قرار لم يكن حكيما، لكن شدة الشوق لبعضنا البعض لم تترك لنا مجالا للتفكير في عواقبه، بل كنا سعيدين حينما تمكنا من الحصول على مفتاح الشقة بعد عناء طويل مع صاحبتها، تقع الشقة في الطابق الثاني، لا يفصل بينها وبين شقتي سوى طابق واحد. انتظرت قدومه بعد توقيع محضر الخروج، كانت رحلته طويلة رغم أني أكره الانتظار، إلا أني اكتشفت أن تلك اللحظات التي تسبق أي شيء هي أجمل من الشيء ذاته، بل أن الانتظار هو قمة اللذة.. ارتديت قميصا ورديا وفردت شعري الطويل واعتنيت بجسمي وجهزت طاولة الطعام وبعض الماء لاستحمامه بعد وصوله منهكا،

تجردت ساعتها من كل ما يمكن أن يشغلني عن قدومه، وجلست في أريكة الانتظار أتفقد الهاتف تارة والباب تارة أخرى. عرفت معه معنى الخلود بالامتداد في أعماق اللحظة.. معنى العمر في لحظات.. لحظات أخبرتني أنني حمقاء . وأخرى أني فتاة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. لحظات تناولنا فيها الطعام معا.. وتناقشنا مختلف الأفكار والثقافات.. وتبادلنا مختلف الأحاسيس والرغبات.. دون أن نتجاوز فيها حدود بعض النزعات .. بل ظل كل شيء عفيفا طاهرا .

قضينا يومين كاملين توطدت فيهما علاقتنا بشكل كبير، لم يكن يفصل بيننا فيهما سوى الليل وحده، كنا نستيقظ باكرا رغم أنها كانت عطلة صيفية لنستغل ما يجمعنا من ساعات، ينام ليلا في غرفة بعيدة عني مخافة السقوط في المحظور، ويرتمي علي صباحا ليزعجني فأستيقظ بلا خمول، يدغدغ أطرافي ويحركها لتتخلص من تقلصها ثم يداعب شعري كطفلته المدللة، نتناول الفطور معا ونغسل الأواني بسأم لأنها كانت وقتا ضائعا بالنسبة لنا، نحاول مشاهدة بعض الأفلام التلفزية بعد الغذاء وما إن نشرع في ذلك حتى نجد أنفسنا منغمسين في تفحص بعضنا البعض والخوض في قص حكايات حب أدبية وتارات أخرى لعب لعبة الدغدغة... شعرت يومها بل تأكدت أني فعلا قادرة على العيش مع هذا الإنسان، بل مستعدة لأن أهبه ما تبقى من عمري، فقد اكتشفت أخيرا أني مولوعة بوجوده في حياتي بل أوشكت على الوصول لمرحلة الهوس. لكن للأسف قصيرة هي لحظات الاكتمال حيث اقتربت ساعة مغادرتنا إلى حيث يوجد الآخرون .. حيث تلتهم السعادة نفسها كما تفعل النيران .. فهي لن تستمر في التوهج للأبد.. بل لابد أن يأتي وقت تهت وتخفت فيه مهما كانت قوة اشتعالها.

ظلا يفكران في بعضهما البعض طوال الطريق، اغرورقت عينا رهام بالدموع، وتوقفت أنفاس كمال عن الصعود والهبوط، روحين انفصلا بعد يومين من النعيم، انفصال قد يدوم لشهر كامل قبل عودتهما للعمل مجددا، ما عاشاه في هذا اللقاء زاد من

شدة تعلقهما ببعض، فبالنسبة لهما لا يوجد شيء في العالم يفقد حبهما شرعيته، ولا دستورا يلزمهما بالتوقف عن الغرق في بحر عشقهما الواسع.

تأكد كمال من حبه لرهام بشكل مطلق أيضا، بل فكر هو الآخر في الارتباط بها على سنة الله ورسوله، لا أدري هل الأمر مبني فعلا عن قناعة ؟ أم أن هذا القرار أساسه التأثر بما عاشاه في تلك اليومين، لم يترك كمال الفكرة محصورة بذهنه بل اقترح الأمر على حبيبته دون تردد، تعجبت هي الأخرى من التغير المفاجئ الذي أصابه، كيف تغيرت قناعاته بهذه السرعة وفي وقت وجيز بعد لقائهما ؟ يبدو أن كمال إنسان صادق بالفعل، لا يبيع الوهم، ويقدر الحب أشد ما يكون التقدير، لكن الوضع بالنسبة لرهام لم يكن مناسبا حينها.

طلب مني كمال أن يتحدث مع أمي في موضوع زواجنا رغم أني شرحت له مرارا وتكرارا طلباتها التعجيزية، لم يعر كلامي اهتماما، بل ظل مصرا على سماعها، لم أجد مهربا من الأمر سوى الرضوخ لأمره شريطة أن يكتفي بالسماع فقط وأن أتكلم بنفسي نيابة عنه . أخبرتها أن الأستاذ كمال الذي تعرفت عليه أيام الحجر الصحي يطلب يدي للزواج، وأنه يريد معرفة رأيها في طلبه وشروطها لإتمامه، تاركة لها المجال في التعبير عما تريده بحرية، فبالرغم من أني أعي جيدا ما ستقوله إلى أني أردت أن يقتنع هو الآخر بصعوبة الأمر، وكان ما توقعته تماما، لقد طالبته بمهر عال وبيت وسيارة والتكفل بكل لوازم الزفاف، اعتبرت يومها أن طلباتها كانت مجرد رغبة في التعجيز وليست طلبات حقيقية، فلم ألمها فيما قالته، كما اعتقدت أن الأمر أيضا حق من حقوق الأمهات في صيانة حق بناتهن، فرغم صلابة أمي إلى أني أثق فيها ثقة عمياء، إنها الحارس الذي لطالما حرس على سعادتي لدى قررت عدم مناقشتها في الأمر بتاتا وريتني قمت بالعكس. ضحك كمال من روع ما سمعه، كيف لأم أن تطالب بكل هذا ثمنا لابنتها؟ وكيف له هو الآخر أن يجهز كل ما طلب منه في ظرف شهر أو شهرين ؟ أحسست باكتئاب طفيف في تلك الأيام، لكن سرعان ما أبعدنا الفكرة التي تم طرحها باعتبار أننا تسرعنا فقط وأخفى كل واحد منا مشاعره دون البوح بها، أطلقنا عذرا مفاده أن الوقت ما يزال أمامنا للتفكير في الزواج، لكني لا أخفيكم

علما أني فعلا كنت أرغب في أن نجتمع في أقرب وقت، أن نكون زوجين سعيدين متفاهمين، لكن أنى يكون ذلك ونحن في طريقنا معارضة شديدة لا أقوى على صدها أو الوقوف في وجهها.

طفت ملامح المشاكل بيني وبينه منذ تفكيرنا في الزواج، فأحيانا التفكير بعقلانية يدفع الآخرين إلى الجنون، ويفسد كل ما يبعث السعادة، والقلق فائدة مدفوعة على المشاكل قبل أن يحين موعد استحقاقها، هذا ما خلصنا إليه سويا بعد مشاحنات دامت لأيام، يلومني فيها بعدم القدرة على اتخاد القرار، ويعيب فيها ضعف شخصيتي، وألوم فيها ابتعاده عن الأعراف والتقاليد وسطوه على حقي في ما ضمنه لي الشرع والسنة والقانون، لكني لا أنكر أن تلك المطالب كانت مبالغا فيها وليست من الشرع والسنة في شيء، لكنها كانت رغبات أمي وأنا خاضعة لها أرى الصواب ما تراه. لم يعترف كمال يوما بقيمة المهر وإلزاميته خصوصا أننا طالبناه بما لا يطيق ويستطيعه، فهو لطالما اعتبر الزواج ميثاقا غليظا أساسه الحب من أجل الحب ولا شيء سوى الحب، لا أهمية عنده لكل ما تفرضه التقاليد من مهر وحفل زفاف وتعارف العائلات، فكل تلك المواضعات في نظره ما هي إلا بيع وشراء وتشييء للإنسان، بل هي محاولة تقييم لثمن المرأة الذي لا يحدده ثمن من الأثمان، كانت له فلسفته الخاصة عن الزواج وكانت لأمي مطامحها وأحلامها عن الزواج أيضا، فالزواج عندها لا يكون زواجا إلا إذا ارتبط بمظاهر البذخ وصار حديث الناس..

لا أعرف عن الزواج وطقوسه إلا ما علمتني أمي فبدا لي كلام كمال غريبا أيضا ككلامها هي الذي يمنع الحب مقابل المال، فقد اعتبرته في لحظة ما تهرب سلس ومتقون من طرفه، لكن سرعان ما تذكرنا أننا نحب بعضنا من أجل الحب دون مواضعات كالزواج وغيره، لذلك قررنا أن نلغي الفكرة تماما رغم ما تركته من أثر خفي في علاقتنا معا. صار يفصلني عن الالتحاق بعملي أسبوع واحد، لكن طرح فكرة زواجي أمام أسرتي لم يكن خاليا من ردة فعل، بل أصبحت أمام أمي فرصة كبيرة ترغمني فيها بالرضوخ أمام قرارها ما دمت قد أدخلت الفكرة في ذهني، لقد قررت فجأة قبول طلب سليم وأمه للحضور إلى بيتنا دون

إعارة اهتمام لرغبتي، بل أجبرتني على الإصغاء لأمه، لم أجد فرصة لإخبار كمال بما حدث، فلطالما أخفيت عنه كل ما تعلق بسليم، بل لا يعلم حتى مسألة وجوده، كيف سأخبره أن الكل وافق على شخص آخر لي زوجا وأني غير قادرة على اتخاد قرار الرفض أو القبول؟

حاولت مرارا إخباره بالأمر ونحن نتحدث هاتفيا لكن شيئا ما كان يمنعني، ربما عصبيته الزائدة سبب في كتماني للأمر، أو ربما خوفي من تخليه عني في لحظة غضب، ولعله الخوف من اتهامي بالخيانة، فرغم رزانة كمال أعي جيدا تسرعه في مثل هذه المواقف التي تمس كرامته وكبرياءه، لقد أرهقني التفكير في الأمر، ولا أنكر أني رغم كرهي لسليم فكرت في قبول عرضه مرة، فهو شخص مناسب جدا للكل، يعجب أمي وإخوتي، ومستعد لتوفير كل متطلباتهم، زيادة على أنه يحبني بالفعل، لكني لا أحبه، والحب لا يكون بالغصب، لذلك فكرت في حل يناسب الكل دون أن أضع أمي في موقف محرج ودون أن أخنع لرغباتهم أيضا. دق جرس الباب على الساعة الرابعة مساء من اليوم الذي اتفقا فيه على الحضور، أحسست بانقباض في المعدة، تتلوه رغبة في التقيؤ، وسرعة فائقة في ضربات القلب، لكن هذا لم يضعف عزيمتي بل زادها صمودا وقوة رغم خوفي من أمي، ومن ردة فعلها، انتظرت الوقت الذي سينادونني فيه، وتوجهت صوب الغرفة بخطوات متثاقلة، ووجهي محمر ينظر أرضا يكاد يسقط من شدة الغضب الذي ظنه الآخرون خجلا، جلست بجانب أمي دون أن أزيح عيني عن الأرض، وسمعت بإمعان كل ما تلته أم سليم على مسمعي من إطراء ومجاملة، وكل محاولاتها في الإطاحة بي، مهر عال ومجوهرات، وحفل زفاف فخم، وكل ما تتمناه العروس من جهاز... تتبعها أمي بكلمات المباركة من قلب نشوان، لكن ساعة الفرح انتهت بكلمة واحدة مني وأنا واقفة أهم بالخروج :

- " لا أقبل ".

لم يكن ما قمت به سهلا بالنسبة لي، فلطالما كنت فتاة مطيعة تتبع خطوات واختيارات أمها، فكل ما قمت به لحدود اليوم كان تبعا لإرشاداتها، ويعود نجاحي لفضلها علي، لكن

الأم الرؤوم انقلبت على عقبيها، وتحول حنانها لعاصفة من الغضب الذي سيطر على أركان البيت، الأمر الذي شنج العلاقة بيني وبينها وفاقم المشكل بينها وبين كمال .

انتهت العطلة الصيفية وعاد شتنبر فعاد معه الكل إلى مقر عملهم، والتحقت رهام رفقة كمال بالمؤسسة أيضا، لقد كان شتنبر هذا العام مختلف جدا عندهما فيه من السعادة والتميز ما يقطع الصلة بينه وبين دخول ينفر منه التلاميذ وذويهم ومدرسيهم أحيانا، فقرر الاثنان في الاجتماع الأول أن يمثلا دور الغريبين، تعاملا على أساس أنهما لا يعرفان بعضهما البعض، وعلى أساس أنهما لم يتعانقا أمس عند رجوعهما، لكنهما تعمدا الجلوس بالقرب من بعضهما لا يفصل بينهما إلا شبر أو شبرين، يتبادلان الرغبة في الضحك، الضحك على الدور الذي يلعبانه، وهما على يقين تام بأنهما لن يستطيعا إكمال التمثيلية لوقت أطول، لم تمر سوى نصف ساعة على جلوسهما ، ما إن تم توزيع محاضر الدخول للتوقيع عليها حتى انجذبا إلى بعضهما البعض، واسترسلا في الحديث تارة، والتشاور تارة أخرى، وبناء التوقعات حول استعمالات الزمن الخاصة بهما أحيانا، لم يترك مدير المؤسسة الحسرة في قلوبهما فقام بسرعة لتوزيع استعمالات الزمن التي ناسبت رغبتهما، لولا علمهما بجهل المدير لعلاقتهما لظناه مؤيدا لهذه العلاقة، فتوقيت عملهما جاء متماثلا في كل شيء، بدت علامات التعجب بادية عليهما لكن ملامح الفرح أخفت كل علامة أخرى أقل منها قوة، فتلاؤم توقيتهما أمر مهم بالنسبة لهما بل أمر لم يتوقعاه إطلاقا، فكل أمارات رضى الخالق بهذه العلاقة واضحة، وقد بدت الإجابة عن سؤال رهام الأول عن الحكمة التي قادتها إلى هذه القرية واضحة :

- "إنها كمال "

قدوم رهام إلى هنا ما هو إلى رغبة الله في التقاء هذين القلبين والجمع بينهما، فتاة من قطب الشاوية وشاب من عمق الأطلس تقودهما أقدارهما كرها ليحبا بعضهما دون سابق تخطيط، حب تنمو أغصانه برعاية الله.

عدنا للبيت بشكل منفصل على عهد اللقاء بعدما تسلمنا مواقيت الاشتغال من الإدارة، سعدنا كثيرا بمفاجأة المدير، لقد منَّ علينا بتوقيت يجعلنا غير منفصلين بشكل مطلق، فالتوقيت متشابه والقاعتان متجاورتان، أنسانا الموضوع كل المناوشات التي مررنا بها مؤخرا وترك لنا فرصة اللقاء بأريحية، لم يعد يفصل بيننا سوى النوم، نقضي اليوم كله معا، نصف بالمؤسسة ونصف آخر مع بعضنا البعض، أما عن سعادتنا فلا يعلمها سوى الله.

مر أسبوع على التحاق التلاميذ بأقسامهم، كانت الأوضاع مستقرة رغم ما تعانيه البلاد من أزمة جراء الوباء، مما أثر على التعليم بدوره، تلقيت مكالمة هاتفية من أمي الغاضبة في بداية الأسبوع الثاني من التحاق التلاميذ تخبرني فيها بحضور أختي الصغرى اليوم، أو بمعنى آخر انتقال أختي للعيش معي في القرية، فقد كان من المتفق عليه أن ترافقني هذه السنة وألا أعيش وحدي هنا بعد رحيلهم. قبلت تحمل مسؤولية أختي الصغرى رغم ما في الأمر من قيد، فلا يخفاكم ما يحمله المراهق من مشاكل وتبعات، لم تكن فتاة صغيرة السن بالشكل الذي أخاف منه فقد كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر سنة، لكنها فتاة مشاكسة تتعب من يتولى أمرها، لكني لا أنكر أن قدومها أسعدني، فهي أغلى مخلوق بالنسبة لي في ذلك البيت، تشبهني في كل شيء شكلا ومضمونا رغم فاصل سبع سنوات، لم يعد لقائي بكمال خاليا من القيود، بل أصبح مراقبا بشكل مستمر من طرف أختي، لكن هذا لم يخلق مشكلا عميقا بيني وبينه رغم أنه أحس بتقيد حريته معي أيضا لكنه لم يمل ولم يشتك إطلاقا، بل عاملها بكل حب هو الآخر، حتى أنه أصبح يوليها اهتماما في كل مرة نضطر فيها إلى اللقاء رفقتها .

ظلت أختي سندا لي، تساعدني في أشغال البيت الخفيفة، وكاتمة أسراري وصديقتي الصغيرة، ومرافقتي في كل خرجاتي مع كمال، لم يقبل أن نتركها يوما في البيت، بل كان ملزما بإسعادها من أجل سعادتي رغم وضع بعض الحدود السليمة بينهما، لا أنكر أنها وبالرغم ما حظيت به من معاملة حسنة منا الاثنين، ومن سعادة برحلاتها الصغيرة معنا

أنها كانت تشعر بين اللحظة والأخرى ببعض الغيرة الصبيانية العفيفة تجاه أختها البكر، فهي لم تتعود بعد على دخول شخص آخر ينافسها في عطفي وحبي وحناني بعدما شهدت بأم عينها ما أغدقته عليه أيضا من اهتمام وحب..

مر شهر على انطلاق الدراسة بشكل فعلي وكذا قدوم أخت رهام للعيش معها، كان قدومها بهدف مرافقة رهام، وعدم تركها لوحدها رغم عدم وحدتها التي لا يعلمها أهلها، لقد أحسنت رهام معاملتها، وكانت ظلها الذي لا يزول حتى رفقة كمال، رغم أن كل رجل في هذا العالم يكره قطع خلوته مع من يحب، أو ممارسة الرقابة عليه مع حبيبته، لكن كمال لم يكن من هذا النوع، بل ظل حريصا على اصطحابها كلما خرجا معا لمكان ما، حرص على ألا يترك في نفسها حزنا باعتبارها ما تزال فتاة في عمر الربيع لا ذنب لها . لا أظن أن كل ما أبان عنه كمال من إخلاص، وحب، وتفان في إسعاد رهام وكبح للرغبات التي تتأجج في صدرهما يترك مجالا للشك في نفسها، بل هو دليل حي على صدق ما يحسه تجاهها، بل حجة على أنه أهل للزواج على عكس ما كان يقوله، وأنه الرجل المناسب لها على الإطلاق، فهو قبل وسامته رجل ذو مروءة وشهامة، يعي قدر رجولته ويحترم المرأة، ينصحها دون عقاب، وإذا عاتبها عاتب بلين ولباقة، وهذا ما ستظهره المواقف والأيام .

كان لابد من مغادرتهما عند الأهل في العطلة البينية الأولى لمدة أسبوع، كان أول فراق لهما بعد شهر ونصف قضياه معا ليله ونهاره، كان الأمر صعبا خصوصا أن كمال كان يعاني من متلازمة البعد، يصبح أكثر عصبية، وعدوانية، يرى أنه بعدٌ لم تفرضه الظروف بل كان بسبب خنوع رهام، يتخلص معه من شخصيته المتفهمة، والطيبة ويتجرد فيه من كل صفات الإنسان المستقل والمؤمن بالحرية، يرى أنه مجبر على أن يصبر بسبب أمور تافهة وكان لا يتوقف عن لوم رهام عن هذا البعد لدرجة تصل إلى المشاجرة بينهما أحيانا .

اضطررت لتمضية أسبوع العطلة في بيت الأهل، ففي نظر البقية لا سبب يدعو لبقائي في القرية هناك، فالثقافة العربية تنفي قطعا الشعور بالشوق لمن نحب حتى لو كانوا أزواجا، تغيّب كل ما يتعلق بالمشاعر وتجعلها من الأشياء التي يعيب على الإنسان التحدث فيها، بل من العار الإفصاح عنها، وقد تصل إلى مرحلة الاتهام بالتمرد إذا قمت بذلك . لم يكن كمال من الأشخاص الذين يعيرون الأعراف والتقاليد أهمية كما سبق أن قلت، بل يكره كل كلمة من هذ القبيل، حتى أنه كان دائما ما يحاول إعادة بناء شخصيتي على هذا الأساس، لكن ظروفي وطبيعة محيطي كانت متحكمة في شخصيتي بشكل كبير، فلا مجال للتمرد على أعراف العائلة أو المجتمع، ولا مجال للتعبير عن رغبة من هذا النوع .

ظل كمال في المسكن لوحده، وتعامله معي عنيف هذه المرة على غرار باقي المرات، لا أستطيع التكهن بما أصابه، ولا معرفة سبب هذه المعاملة المفاجئة، لم ينفك عن لومي عن بعده، ولا عن التعبير عن الاكتئاب الذي أصابه، صارت تراودني أفكار سيئة بخصوص بقائه لوحده هناك، لكني أعرف أيضا أنه يعاني من مشكلة تقلب المزاج بسبب تقلبات الجو أو الوحدة المفرطة، وأظن أن هذا ما زاد من حدته في التعامل هذه المرة، لن أسمح لنفسي باتهامه بأمور لن يقوم بها كوني أعي جيدا أنه إنسان خلوق وذو مبادئ، ولا يستطيع خيانتي رغم بقائه لوحده، أو هذا ما كان يتهيأ لي، فالإنسان بطبعه ميال إلى كل محظور. طلب مني كمال العودة في وسط الأسبوع فجأة، شرحت له أن الأمر مستعص علي، فلا عذر لي أمام أبي وأمي، وقد يخلق لي ذلك مشكلا، لكنه أصر على أن أتشجع من أجله لأنه في حاجة لي. أتفهم أمر اشتياقه لي، فأنا مشتاقة له أيضا، بل لا عزاء لي في الحاضرين معي، لكنني كنت مترفعة عن خلق أي مشكل مع أمي، فأنا في حاجة ماسة لرضاها كي يتوقف المشكل القائم بينها وبيني خصوصا بعد ما أقدمت عليه، لكنه في كل مرة نحاول فيها تجاوز الموضوع أجده مصرا على إظهار غضبه مني، أو بالأحرى رغبته في إثارة المشاكل، فلم يكن مني سوى الانصياع وراء رغباته المستفزة، وخلق نقاش حاد ليلتها انتهى بكلام لم أود قوله:

- " لست أهلا للثقة يا كمال، ولا تستحق أن تكون زوجا " .

تركت جملتي أثرا بالغا في أعماق كمال لقد اكتفى بعدها بالشكر فقط، ومن عادتنا ألا نشكر ولا نعتذر ولا نجامل، بل وضعنا شرط رفع التكلفة منذ أول لقاء، لم أستطع الاسترسال في الحديث وقررت غلق الهاتف والنوم وترك الأمور على ما هي عليه لحدود الغد، أعرف أنه ينتظر اعتذاري هذه المرة فكلامي كان جارحا، لذلك قررت أن أصالحه بعد ما قلته، فتحت هاتفي وهرعت لأنظر في رسائله لعله بادر بالصلح كعادته، لكني وجدتها خالية من أي رسالة، فهو منذ أن عرفته لم يترك لي مجالا أشعر فيه بالوحدة بعد شجارنا وما إن تمر دقيقة حتى أجده متصلا بي يصالحني، تعجبت حقيقة من الأمر، ولاحظت مباشرة أنه غيّر صورة حسابه الخاصة فقمت أراقبه لأتفقد وجهه البريء الذي اشتقت إليه، فإذا بي ألاحظ شيئا غير طبيعي، شيئا لم أعهد وجوده في صوره وهو الدقيق في اختيارها، إنها خصلة شعر شقراء تظهر في جانب الصورة، والصورة حديثة تم التقاطها اليوم والآن بالذات، وهذا إن كان يعني شيئا فإنما يعني شيئا واحدا وهو أنه فعلا برفقة فتاة أخرى، كنت كمن يقفز من شدة الألم بعد إمساك شيء حارق فلم أستطع التحمل أو التريث بل قمت باستفساره بعبارة قصيرة انتظرت بعدها تبريرا منطقيا :

- " يبدو أنك سريع الخطى "

فكان جوابه صادما يحيل على أنه ملأ فراغه مباشرة بعد غيابي:

- " من ليسوا أهلا للزواج دائما سريعو الخطى "

تسارعت نبضات قلبي بطريقة مخيفة، وانقبضت معها أنفاسي فاصفرت ملامحي، أحسست بدوار رهيب جعل المكان يدور من حولي، وانهمرت دموعي كسيل هب من فوق، صرخت في أعماقي صرخة مدوية دون أن أحرك ساكنا في الظاهر، اختفت ضحكتي فجأة واختفى معها كل شيء جميل أحسسته من قبل، بل انقلبت سنين عمري أضعاف ما عليه في ثوان، لملمت كرامتي وهرعت لحظره من هاتفي فور استيعابي لما حدث، لأني لا أستطيع لومه على أشياء لو كان يحبني فعلا لما قام بها، لم أعرف حينها كيف السبيل إلى إزاحة

الثقل الذي أحسست به، هل أبكي وجعا؟ أم أنام للغد متجاهلة كل شيء ؟ هل أعاتب قلبي؟ أم أبوح لغريب بأني أتألم..

من الموجع أن يقف الكلام بين فمك وحنجرتك، إن أظهرته ندمت، وإن أبقيته تألمت، هذا ما يحدث مع رهام بعد حظر كمال منذ الأمس، بداخلها الكثير من الكلام الذي تريد التعبير عنه، فمعرفتها بخيانته أعمت بصيرتها، وجعلتها تحس بأن ما فعلته بسليم له دور كبير في ما حصل، فهي خير المؤمنين بأن نوائب الدنيا تدور، لذلك قامت بالاتصال به فور مسح دموعها، ظنا منها أنه فعلا من يستحق اهتمامها، وأن لا أحد قادر على أن يحبها بالشكل الذي أحبها به، وكانت تلك سقطتها الكبرى..

كان اتصال رهام بسليم أمرا متسرعا، لكنها شبه متيقنة أنها فعلت الصواب، فبعد أن قطع أمل الزواج بها، أعطته فرصة لإحياء ما تم دفنه مجددا، لم يكن من الصعب عليها إرضاؤه بل كان سعيدا باتصالها رغم استفساره عن السبب، حكت له بدورها كل ما حدث وتقبل ندمها وتحسرها بكل صدر رحب، لا ننكر أن سليم رغم بشاعة تصرفاته إلا أنه يحب رهام بطريقته، وهذا ما جعلها تقرر العودة إليه دون تردد خصوصا بعد ما حدث من طرف كمال وما ظنته خيانة. إن الخيانة هي ذلك الحذاء الثقيل الذي يدوس على زهرة الحب المتلألئة بقطرات الوفاء، فلو افترضنا جدلا أن كمال خائن، فخيانته لا تعني أنه لم يحبها إطلاقا، بل هي طريقة خاطئة عبر بها عن غضبه، طريقة ستهدم بستان الحب الذي أنشأه برعاية تامة، من الصعب تصور الخيانة من هذا الرجل الخلوق، أو ربما أصبحت المظاهر ثوب غزال يلبسه الذئب.

لجوئي لسليم ما هو إلا ارتكاب لنفس خطأ كمال، فعودتي له انتقام من نفسي قبل انتقامي منه، لم يكن انتقامي منه ومن نفسي سوى مظهر صريح من مظاهر الضعف، الضعف الذي لم أعرفه من قبل أو بالأحرى الذي لم أعترف به مسبقا، فخيانته لي تستدعي القوة وقد أستعيدها في القادم من الأيام، أهرع لفراشي ودموع الخذلان والضياع تحيط بوجهي لليلة الثانية بعدما كنت أنام على صوته وكلماته الكاذبة، كم أرغب بشدة في

الصراخ والبوح، لم أجد شخصا أعبر له عما أحسه، فلا سليم يستطيع تعويض مكانه، ولا رغد تستطيع إزالة هذا الثقل عن صدري، ولا أمي ستفهم في شؤون الحب. زادت سرعة دقات قلبي بشكل ملحوظ عندما تذكرت أني سأضطر لرؤيته غدا في المسكن أو بعد غد في العمل ولمدة سنة كاملة، لأول مرة تمنيت لو لم نحظ بتوقيت العمل نفسه، لو لم أحبه من أعماق قلبي، لو لم أعامله بصدق، لو لم ألتقيه يومها، لو لم أظن أنه انتمائي الحقيقي الذي كنت أفتقده.

تصرفهما أغلق كل أبواب الرجاء، ففي نظرها من أحبته أغلق قلبه فجأة بمفاتيح صدئة وألقاها في سراديب النسيان، وأصبحت تسكن بيتا آخر لم يعد يعرفها فيه أحد، غفت المسكينة بعد صعوبة على أمل النسيان أيضا، واستيقظت بعد طلوع الشمس مباشرة على غير عادتها متورمة العينين وذابلة الخدين، كيف لقلب مفطور أن ينام مرتاحا لساعات متأخرة بعد الصبح، ظلت ممددة على سطح الفراش تتأمل وضعها الجديد، تحاول السيطرة على مشاعرها بالقوة، مرت ساعة وهي بهذا الشكل، فقررت فجأة أن تجهز نفسها للمغادرة، فقد حان وقت عودتها إلى هناك، جمعت خصلات شعرها المتناثرة ولبست نظاراتها الطبية، وتوجهت للحمام لتستحم وتزيل علامات الحزن مجبورة على الابتسام لكل من صادفته في طريقها، توقفت بعد الاستحمام أمام المرآة تتأمل وجهها المتعب وشعرها المبلول، وقطرات براقة تكاد تتسلل من عينها، بجانبها مصفف الشعر ومحفظة مملوءة بمساحيق التجميل، كفكفت دموعها وقامت بتصفيف شعرها الذي توقفت عن تعذيبه لمدة بعدما طلب منها كمال ذلك، ووضعت بعض المساحيق لإخفاء ما بها ناسية أن ما بباطننا يظهر على صفحات المقل .

اعتذرت لأمي عن تناول وجبة الفطور فلا شهية لي تساعدني على ابتلاع لقمة واحدة، فحملت بسرعة رفقة أختي ما جهزته لنا من أكل ومؤن وحقيبة لباس وعمل، وتوجهنا إلى السيارة لنعود إلى الدراسة والعمل مجبرين، هذه المرة لن أقل كمال معنا إلى القرية ولن نجده بانتظارنا بعد أن ألفت تقاسم تعب الطريق معه في المرات السابقة، لقد انتهى كل

شيء بيننا، ولا مجال لعودته حتى لو مت ألما من شوقه. وصلت للمنزل بعد عناء طويل وتعب كبير، أحاول تثبيت نفسي على عدم الصعود لرؤيته، طهوت بعض الأكل لأختي ونظفت المطبخ قليلا وحاولت الخلود للنوم لأستقطب بعض الراحة، لكن رأسي يكاد ينفجر من شدة الصداع وأنا أفكر فيه، أحسست بموت بطيء ينخر جسدي، إنه إدمان رؤيته ومعانقته بعد العودة من بيت أهلي، لم أجد منفذا للهروب من نفسي سوى أن أصعد لسطح العمارة وأستنشق بعض الهواء العليل، لم يكن الهدف الحقيقي الترويح عن نفسي بقدر ما كان البحث عن فرصة لرؤيته وأنا على علم تام أنه سيصعد للسطح هو الآخر . حملت هاتفي وجلست في أحد أركان الشرفة واتصلت برغد لأحكي لها ما حدث، فلا أحد يستطيع سماعي الآن سواها، تناقشنا موضوع سليم ومسألة رجوعي إليه، فإذا بها تسألني عن مدى قدرتي على تحمله مجددا، ما إن أردت الإجابة حتى وجدت طيف كمال يتسلق السلم بخفة باتجاه ملابسه البيضاء المنشورة على حبل الغسيل في الركن الآخر، توجه إلى ملابسه مباشرة بعد إلقائه لي مباشرة جملة كالسهم ترافقها ابتسامة مليئة بالحزن الذي يعمل على إخفائه :

- " هل أحببت بهذه السرعة ؟ "

قطعت الخط عن رغد دون تردد وتوجهت صوبه لأناوله كفا على ما قاله وما فعله، كانت ردة فعله غريبة كعادته، انتظرت منه كفا آخر، لكنه ضمني إليه بكل ما يملكه من حنان رغم استغرابه مما فعلته ، فلم أستطع حينها كبح دموعي التي قررت الانهمار جملة واحدة، حملني على كتفه دون أن يترك لي مجالا للرفض، وأخذني إلى بيته بسرعة البرق غير مبال بمن قد يصادفنا في الطريق من سكان العمارة، إنه كمال الذي يغلب عنده الحب عن كل مألوف، والذي لا يرى حدودا بين المحبين ولا يعير اهتماما لمن هم خارج دائرة الحب. وضعني على أريكته وجلس بجانبي مطالبا إياي بضمه بحرارة كي يزول ذلك السم العالق بيننا، كأنه يدري أن أضلعه ستزيل كل الوجع الذي في صدري وتشفي الروح التي بداخلي.. تذكرت

مباشرة صورته رفقة الشقراء، فعاد نفس السم إلى جسدي إلا أنه أقل حدة، سألته عن سبب خيانته، فرد بانكسار كأنه يلومني عن سوء ظني به:

- " إنها ابنة خالتي حلت ضيفة عندي رفقة أمها "

لمته على تصرفه الغبي معي ونسيت أني قمت بجريمة أعظم منها حينما كلمت سليما أمسا، كيف سأخبره بالأمر ؟ من الحكمة أن أصمت وأحظره من هاتفي مرة أخرى دون علم كمال بما حدث، هكذا فكرت في حل لمصيبتي، لكن كمال شخص ذكي للغاية، صعقت عند مطالبته بفتح الدردشة الجارية بيني وبين رغد، كمال أشبه بالعرافين، هكذا تخيلته دائما يستطيع أن يتكهن بأشياء كثيرة قد حدثت لم يشهدها ولا سمع بها، لكننا نتفادى التدقيق في الأمر لمعرفتنا أن هذه الأمور بيد الله وحده بالرغم من أنها قد تكون حاسة سادسة قوية.. رفضت رفضا قاطعا فتح هاتفي، لكنه وضعني بين خيارين أحلاهما مر، فإما أن يطلع على رسائل رغد ويعلم الحقيقة أو يقبل رفضي فيكون سببا في فراقنا. لم أجد مهربا من أن أخبره بكل شيء، وأن ما فعلته ما كان سوى رد فعل على خيانته تلك، احمرت عيناه غضبا واعتبر ما قمت به خيانة عظمى أنزلتني أدنى درجات الحب التي تسلقتها بصعوبة وأعادت ثقته بي إلى الحضيض، فقدت ثقة كمال نتيجة تسرعي المعتاد، فتسرعي في اتخاد القرارات من أكثر الأشياء السلبية في ولطالما حذرتني منه رغد منذ زمن، بل اتخاد القرارات في وقت الغضب أمر في غاية الغباء لطالما حذرني منه هو أيضا. لقد كانت المرة الأولى التي تصفعني كفه التي لطالما لامست خدي برفق ولين، لم أجب رغم أني أراه مخطئا أيضا، فلا شيء يبرر ما قمت به، لكن لا أنكر أن صفعته قد آلمتني كثيرا، فما توقعت منه مثل هذا التصرف يوما وهو المتحضر في نقاشه دوما، لكن أمام الحب يمكننا التصرف دون وعي أحيانا كما يمكننا تقبل كل شيء سيغنينا عن الفراق.

من الطبيعي أن تنشأ خلافات جوهرية بين كمال ورهام رغم حبهما الكبير لبعضهما كما كانت تنشأ في كل مرة روابط جديدة تقوي أواصر هذا الحب، فليست هناك حياة دون مشاكل وهموم وتدخلات خارجية، رغم أنه كان من الصعب أحيانا أن يتفهما تصرفات بعضهما البعض خصوصا وهما غاضبين، فالغضب ردة فعل أولية يليها الندم دائما.

الندم . كلمة لطالما رافقت رهام على طول مسيرة هذا الحب رغم روعته، فقد ندمت على الكثير من الأمور التي لو أمسكت فيها زمام الأمور لما فقدت تلك السعادة التي عاشتها منذ قابلت هذا الحب إلى حدود تلك الليلة التي قررا فيها تسريع أمر الخطوبة.. لم تعتقد يومها أن فرحة الحلقات الذهبية واقتراب موعد زواجها ستزول بعد ساعة من الزمن... بل انقلبت إلى دموع ساخنة تحرق أديم ما تسقط عليه.

دخلت أنا وكمال إلى البيت بعدما اقتنى ما لذ من السمك لطهي وجبة العشاء، قرر أن نتناوله رفقة أختي في منزلي الليلة لنحتفي بخطوبتنا مسبقا وكي لا نتركها وحدها اليوم بطوله، فلطالما كانت حاضرة في ذهنه كأخته الصغرى رغم حدود العلاقة بينهما وذلك راجع لشخصيته في تكوين العلاقات لا غير.. كان طعام العشاء لذيذا كعادته، فكمال طباخ ماهر وكل مهارته تجتمع في أطباق السمك خاصة، لم يخفي سعادته تلك الليلة، بل كان وجهه مشرقا مستبشرا رغم التعب وكله حيوية ونشاط، ولا أنكر أنه كان متوجسا بعض الشيء من أفكار أمي وخططها المفاجئة، لكنه فضل إعفائي من حدسه هذه المرة، فاسترسلنا في الضحك وتناول العشاء على مهل.. إلى أن وردتني رسالة قصيرة من أمي :

- " كل ما اتفقنا عليه تم إلغاؤه "

لم أستوعب الرسالة جيدا، بل لم أتوقع ما تقرأه عيناي مطلقا، ما الشيء الذي تم إلغاؤه؟ وما سبب إلغائه ؟ بل من خول لهم حق إلغائه ؟ كلها أسئلة أحاول الإجابة عنها في لحظة واحدة مزدحمة مثقلة بالدموع، أكاد أجزم فيها أني سيئة الظن بهم، وأن الرسالة ليست من أمي، أو ربما ما تم إلغاؤه شيء لا علاقة له بخطوبتي..، أخبرت كمال بمحتوى الرسالة ويداي ترتجفان من هول ما قلته، كان أثر الصدمة باد على وجهه بشكل واضح، وكيف لا يصدم وهو الذي كان يحتفل قبل برهة من الزمن بموضوع يتم إلغاؤه بكل بساطة في بقعة أخرى من الكرة الأرضية، لن أنس ما حييت تلك الملامح ولا تلك الطريقة التي رمقني بها كمال ساعتها.. طلب مني كعادته ألا أتسرع وأن أتصل للاستفسار عما حدث، فلم أجد ردا شافيا يطفئ تلك النار المشتعلة من برودتهم...

أجابت أمي بكل برود كأن ما حدث يجب حدوثه وأن الوعد الذي قطعته يجوز النكث به، تخبرني أن أبي يعارض هذا الزواج إلا إذا توفرت الشروط التي يريدها هو من مهر عال ومؤخر لا ضرورة منه وجهاز تام وحفل زفاف فخم وغيرها من التفاهات التي قيدنا بها المجتمع لم ينزل الله بها من سلطان، كيف لنا أن نجهز كل ذلك في وقت وجيز، فقد اتفقنا سلفا على مهر معين وحفل يجمع بين العائلتين وكل ما يتطلبه الزواج من شروط أيضا.. فلما كل هذا التعسير ؟ ولما لم يعد للعلاقات معنى يخص الإنسان لأجل الإنسان ؟ لما نبني مستقبلنا على أشياء قابلة للزوال على حساب الأرواح ؟

ناولت كمال الهاتف برغبة منه في التحدث مع أمي عن إمكانية التراجع عما يقوله أبي لأنه مناف للواقع، وأن مجرد التفكير في بناء علاقة وفق شروط تافهة يزيل جسور الثقة بين العائلتين، لكنه وجد نفسه فجأة كأنه يوقد النار في الهشيم، فكل كلمة من كمال كانت دائما محل تحليل وتفكيك وإعادة بناء، فليست هذه المرة الأولى التي يتم فيها رفض طلبنا بهذا الشكل، بل إنها المرة الثانية التي أندم فيها على عدم التدخل، لقد انتظر مني كمال هذه المرة أيضا أن أصارحهم برغبتي في الزواج منه، وأن يكون لي قرار حاسم في الموضوع، لكني خذلته مرة أخرى، نعم. إنها ليس المرة الأولى، ففي كل مرة كان يطلب مني فيها أن

أواجه والداي برغبتي كنت أخضع فيها لرغباتهم، رغم أنها خاطئة تماما، فبدل أن يركزا على رغبتي وعلى الشخص الذي أريده ركزا على ما يملكه، وعلى مكان إقامته وعلى بعده عن مدينتي، وكل الأشياء التافهة الأخرى التي لا تليق أمام مستقبل لا نعلمه غير قابل للثبات، وهذا ما يؤلمني لليوم، مؤسفة كل هذه الأنانية في تقدير المصائر والتحكم فيها من أجل أحلام واهية لن تدوم أبد الدهر..

لم يكن تقبل ما وقع تلك الليلة هينا عليهما، فقد دخلت رهام في اكتئاب حاد صعب عليها الخروج منه، لكن رغم ما تحسه من كسر أمضت الليلة كلها تحاول إقناع الكل أنها بخير وأنها تعلم أنه مجرد نصيب كما يدعون، نسوا أن الحياة اختيار أيضا ولو لم تكن اختيارا لما ترك لنا الله حرية اختيار الجنة والنار وفق أعمال اخترناها أيضا.. ظلت تقنع نفسها أن كلام والديها واجب عليها اتباعه، لم يكن يعلم أحد ما تجرعته من ألم سوى الله، استيقظت بعد أن غفت لساعات قليلة بعد جلد قاس للذات، عيناها متورمتان يكاد يظهر سوادهما من أثر الانتفاخ، ووجه شاحب أصفر يشيخ ساعة بعد ساعة في سرعة خارقة للزمن، ما كان لكمال بعد رؤيته لها بذلك الشكل إلا أن يشد أزرها ويظهر بصورة القوي، لم يترك لها مجالا تحس فيه بالوحدة يومها أو بأنها مذنبة في ما حصل أيضا رغم تألمه هو الآخر، ورغم امتلاكه مبررا للرحيل، فلا عاقل يقوى على الخذلان مرات عديدة ويصبر على الإهانة من أناس ليس مجبورا على تقبل إهانتهم.. لكن حبه لها كان أقوى من مقدرته على الرحيل. قام بإخراجها رفقة أختها إلى مدينة بني ملال، لعلها تنسى قليلا ما حدث، لكن إمكانية ذلك كانت مستحيلة، كيف لها أن تنس كل ما كانت تحلم به وتخطط له رفقته، فقد خططا لكل شيء، بل جهزا أرقام المونين وصور الألبسة وقاما باقتناء البعض منها وتوفير القليل من المال أيضا، كانت تظن رهام أن المشكل مادي بشكل كبير، وأن عجز كمال على توفير ما طلب منه هو السبب الوحيد لرفض هذا الزواج، لكن الحقيقة مخالفة تماما لما تظهر عليه، فكُره أمها لكمال حقيقته إبعاد ابنتها عنها، فدائما ما كانت تظن أنه سيكون سببا في تخليها عنهم، وأن تآزر العائلة سيتفكك بعد رحيلها معه، حتى أنها كانت تتصيد له الكلمات رغم واقعيتها كي تشيطنه في نظرها ونظر رهام، لقد وقع تنافر تام بين الشخصين في أول

لقاء بينهما قبل الحركة الانتقالية وبعد الشجار الذي وقع بينهما بأيام حول الشقراء وسليم، أتتذكرون؟

لم يدم الشجار بيني وبينه لوقت طويل، بل اعتذر عن كفه لي مباشرة، واعتذرت عن تصرفي غير المسؤول، رغم عدم تقبل كمال له، فقد صار وأن أصبح يسمعني مرارا مرة مازحا وأخرى جادا أني خائنة، لم يكن يعلم أني أتألم من تلك الكلمة، لكني كنت أحاول تجاوزها لا لأني خائنة فعلا بل لأني مخطئة، قرر كمال بعدها بأيام أن نتزوج رغم أنف الجميع وأن نحسم في أمر انتقالي الذي ينتظره الجميع، فلا شيء يمنعنا من الزواج في نظره، وأن بعدنا عن بعضنا في كل مرة أصبح مزعجا، فهو يحبني ومتأكد أنه يريدني شريكة له في حياته الباقية، فلا داع للتأخر أكثر، وأن مكان المرأة بيت زوجها عاجلا أم آجلا . لم يكن يعلم أن المكان الطبيعي في نظر أهلي هو بيت أهلي فقط أو بيت زوج بالقرب من بيتهم، أو على الأقل ليس الآن أو في هذا المكان، لم أجد مهربا رغم محاولة إقناعي له بتأجيل الفكرة إلى السنة المقبلة، أو أن يقوم هو بالالتحاق بي إلى مدينتي، لم ألمه على عدم القبول، فمن الطبيعي أن يرفض تبعا لما تقتضيه الأعراف، فالزوجة من تتبع زوجها لا العكس..

هذا ما حاول كمال أن يخبر به أمي ونحن في السيارة بنبرته الحادة وصوته القاس دون وعي منه أنه قد زرع فيها الخوف منه في أول لقاء بينهما، وما كان حضورها بسرعة إلى بناء على طلبه ليلة أمس بعدما قررت الانتقال دون إخبار أهلي أني أريد الزواج منه، فهذا الضعف في اتخاذ القرارات هو السبب فيما أعيشه الآن وهو ما أندم عليه في كل حين، لم تتقبل أمي شخصية كمال الجادة ولا صراحته النادرة رغم أنها تقابله لأول مرة، لكنها لم تتقبل علاقتي به منذ البداية وقبل أن تتعرف عليه أيضا، ظنته مراوغا طماعا دون أن تعاشره حتى لنصف ساعة كاملة، وما أكثر من خسرناهم لمجرد حكمنا عليهم دون علم يقين بصدقهم.. فما وجدت حلا بعد مغادرته سوى رفض مقابلته في البيت مجددا متوسلة بالدموع واستلاب العواطف، فهي أكثر الناس علما بأني لا أتحمل دموعها وقهرها، لم يتخذ هو الآخر

موقفا منها أكثر من تموقفه من ضعف شخصيتي في التعبير عما أريده، فمسألة عدم التعبير عن موقفي كانت غريبة بالنسبة له مقارنة بإنسانة عاقلة مستقلة ماديا، ولم ألمه على الصورة التي كونها عني فهو معرفته بي إلا أنه أقل الناس معرفة بالطريقة التي أنشأت بها أمي هذه العائلة، فمسألة زواجي كانت مغيبة تماما، بل منعدمة فأنا البكر، ورجل البيت المستقبلي كما تناديني أمي مرارا.. لم نجد بدا من أن نملأ طلب الانتقال يومها، بل ملأه لي بيده رغم الألم الذي لحق بنا معا، لم يفهم البقية أن تسرعنا ما هو إلا دليل على أننا أحببنا بعضنا بشكل جدي، على العكس من باقي العلاقات التي تحتاج وقتا مطولا لترسي على قرار الزواج .

كان المشكل المادي سببا ظاهرا تتعسر به الأمور في كل مرة، لكن باطنه تخوف أم رهام من زواجها بعيدا عن بيت أهلها، وكأنها لم تكن تظن أن رهام قد كبرت وتجاوزت سنها سن الزواج مقارنة بالسن الطبيعي لذلك، ففي كل مرة تحدثا عن السن كانت تخبرها أن الأستاذات يتزوجن بعد سن الثلاثين، لا أعرف من أين أتت بهذا المنطق الخاطئ، لأن الزواج لا سن محدد له بعد بلوغ السن القانوني ما دام الشريكان قد توافقا، لكن رهام كانت دائما ما تجد تبريرا يغطي عن مثل هذه الأفكار الخاطئة، فهي تدرك أن أمها تبني أفكارها بناء على محيطها المغلق، لا تعلم أن معدل العنوسة في ارتفاع دائم وأن العزوف عن الزواج مطروح بكثرة، وأن الذكور يبحثن عن إناث أجسادهن غضة في سن صغيرة، لم يمر يوم تحدثت فيه رهام مع أمها عن الواقع الذي لا تعرف عنه شيئا إلا وسقطت في فخ اللوم والاتهام بأنها تكرر كلام كمال فقط، وأنه المسؤول عن تحريضها على أنهم يريدون عدم زواجها وبقائها بينهن مدى الحياة، في حين أن استنتاج رهام لذلك في لحظات الغضب كان بناء على كلام أمها الجارح لها بالضبط، فمن الطبيعي أن نكره من يعري لنا الواقع ومن يكشف ذلك الغطاء الذي يحجب عنا حقيقة نخفيها بكل قوانا ودون وعي منا . هو نفسه الكره الذي نشأ بين كمال وأمها، كره لا أساس له من الصحة كله أوهام يخلقها الطرفين بعد تبادل بعض الكلمات الجارحة في كل مرة رغم أن مصدرها دائما من أم رهام، لا ننكر أن أسلوبهما معا كان فضا، لكن شتائم أم رهام تجاوزت الحد في كل مرة تحدثا فيها

ظنا منها أنها الطريقة السليمة لتفريقهما، فظل يظن الطرف الأول أن الثاني مادي لا يعير العلاقات الإنسانية أهمية ولا يحترم مشاعر الآخر.. ويظن الثاني أن الأول مخادع يحاول سلب محبة الابنة لعائلتها وإبعادها عنها وأن السبيل الوحيد لإبعاده هو خلق صراعات بينهما، في حين أن الطرفين معا مخطئين تماما، فكلاهما نسيا كنزهما، وكلاهما نسيا أن رهام من تضيع بين من تحب، فمسألة وضعها بين خيارين أحلاهما مر جعلتها تعي أن الكل فكر في مصلحته دون وعي بأن صاحبة الاختيار لا يجب عليها الاختيار أساسا، وبالرغم من انحيازها لأمها ظاهرا فهي تتألم على فقدان من تحبه، وهي الحقيقة التي ترفّع الكل عن إدراكها.

تألمت على عدم احترام رغبتي للمرة الثانية، للمرة الثانية يفرض علي التخلي عمن أريده واخترته ليكون شريكا لي، للمرة الثانية يرى فيها الكل أنه من حقهم اختيار الرجل المناسب لي بدلا من اختياره بنفسي، للمرة الثانية يستعمل أهلي أسلوبا غير سليم في اتخاذ قرارات لا حق لهم في اختيارها تحت ازدواجية السخط والرضى، رغم حبهم لي إلا أن الكل فكر في مصلحته الخاصة، لم يسأل أحدهم بماذا أحسست في كل مرة رفض فيها طلب زواجي، أو عن رغبتي وما أريده، لم يكلف أحد نفسه بالتنازل عما يسعده مقابل ما يسعدني أنا، لم أجد السند من أحد سوى أختي الصغيرة أحيانا. لقد كانت في البداية من المتفرجين، تكتفي بالقول أنها مسألة نصيب فقط، وأن قرار أمها هو الأولى والأجدر، وكأني فتاة في الثامنة عشر من عمرها، لا تدرك ما تريده ولا قدرة لها على تعيين الصواب، لكنها في المرة الثانية عبرت عن موقفها بشكل صريح أمام الكل، وأن الطريقة التي أقدما بها عن التراجع عن وعدهما لنا غير سليمة مطلقا، لم أجد حضنا أشكو له بثي سوى تلك الصغيرة، فهي على الأقل أكثر شجاعة رغم صغر سنها، لقد طلبت مني التحدث مع أمي وأبي مرارا بل كانت تقوم بذلك خفية مني في كل مرة، لكنها هي الأخرى لم تستطع تغيير شيء ما دمت أنا خانعة.

مررت بفترات خرجت فيها عن السيطرة على نفسي كنت أتشاجر فيها مع أمي في كل مرة حول نفس الموضوع، كنت أحاول فيها في كل شجار أن أحصل على جواب لسؤال واحد، هل محاولة زواجي خطيئة أقدمت عليها؟

لما ظن الكل أن رغبتي في الزواج تخل عنهم ؟ وأن زواجي في هذه الفترة ليس من حقي وهو اعتراف مني بأني لا أريد التضحية مع أسرتي ومساندتهم على المدى البعيد ؟ فما كان مؤلما أن الطلب الثاني جاء بعد حرب ضروس في إقناع أمي بأن كمال شخص طيب رغم أنه فعلا لم يخطئ في شيء، فلو كان غيره من تعرض لكل هذا العبث لفر هاربا، لقد كان صريحا معها فقط في كون الالتحاق من واجبات الزوجة لا الزوج، لكن الأخيرة ظلت متشبثة برأيها وما أصعب أن تغير فكرة لدى والدتي، وكانت تلك كلها مجرد أعذار لثني عن الزواج، من أجلي قام كمال بطلب الغفران عن زلات لسانه التي لم يقصدها أو ربما هي غير موجودة وتم خلقها نفسيا لدى والدتي فقط، وطلبت هي الأخرى السماح منه عما صدر منها من كلام جارح في لحظة غضب. سررت كثيرا بعد أن تصالح الاثنان، وظننت ساعتها أن الدنيا قد ضحكت في وجهنا أخيرا، فتوالت السفريات والخرجات بعد قبول أمي لزواجنا بهدف توطيد العلاقة بين الكل، كان الكل سعيدا ما عدا أمي للأسف فقد كانت تدعي ذلك فقط، تحاول في كل مرة أن تظهر الرضى لكنها كانت سرعان ما تفشل في إظهاره، فكيف لها أن تخفي عن بكرها ما تحملها في صدرها .

كانت تبرر عدم ارتياحها في كل مرة بأسلوب كمال معها وغضه لبصره عن الكل، كيف لي أن أشرح لها أيضا في كل مرة أن شخصية الإنسان تختلف من شخص لآخر، وأن كمال شخص منطو يجعل لكل العلاقات حدودا ما عدا معي، وأن الأمر لا ينحصر على علاقتها به فقط بل مع الكل، لم يكن شرحي ينفع معها في كل مرة لا لشيء سوى أن السبب الباطني عدم رغبتها فيه كليا وأن كل الأعذار التي أعطتها واهية بشكل ملحوظ يفطن لها حتى الأصغر منا سنا، ظل ذلك النفور مخبأ إلى أن كشفنا عن تاريخ زواجنا فوجدت في أبي سندا لرغبتها الدفينة في رفض هذا الزواج بل لم تتوان عن شتم كمال بأقبح الصفات عند

أول سوء تفاهم حصل بينهما في الهاتف، حينها علمت أن موضوع اجتماعنا ميؤوس منه تماما.

كان من الطبيعي أن يتخلى كمال عن فكرة الزواج بي بشكل مطلق ففي كل مرة يكتشف أنني لست أهلا لذلك ولا قدرة لي على تكوين الأسر ما دمت غير قادرة على التعبير عما أريده، حتى أنه في لحظة قريبة من الغضب بعيدة عن المزاح ولو كان قد أراد بها ذلك حقا، أخبرني أنه في حال لم نتزوج سيعمل على التفكير في البحث عن امرأة تستحق حبه أكثر، امرأة قوية ترغم أهلها على احترامه واحترام قراراتها، امرأة فيها من الحزم والقوة بقدر ما فيها من الرقة والحنان.. أوقفته دموعي معتذرا على ما لم يقصده من جرح سيظل غائرا، والحقيقة أن كل ما قاله لا غبار عليه، فأنا شخص ضعيف رغم مشروعية ما أطلبه، لكنه رغم كل ما حدث لم يستطع التخلي عن علاقتنا، بل ظل يحبني رغم غضبه الدفين مني، ذلك الغضب الذي كان يظهر مترجما في تصرفات أخرى دون وعيه. لم يكن هناك مجال لنفترق بشكل كلي حتى لو حاولنا ذلك، فكلانا يعي المشكل الذي وقعنا فيه بسبب إخلاف أمي بوعدها، فقد تعرضنا في عدة مرات للكثير من الأسئلة من طرف صاحب العمارة وبعض القاطنين في المنطقة عن طبيعة العلاقة بيننا، فاضطررنا لإخبار الكل على أننا زوجين حقا وقد كان لزاما علينا الحفاظ على هذه الصورة إلى حين انتقالنا مكرهين، وقد تقرر انتقالنا فعلا إلى مدينتين مختلفتين بل إقليمين مختلفين أيضا.

مرت نصف سنة على رفض طلبهما الأول حاول فيها الاثنان تجاوز كل خيبات الأمل التي تعرضا لها، وتوقفا عن محاولة إقناع الآخرين بهذه العلاقة، إقناعهم بما لا دخل لهم فيه، وهنا تكمن الغرابة في الموضوع ، ففي العالم بأسره يكاد الإنسان أن يجد شريكا مناسبا يلائم أفكاره ومستوى حياته وتطلعاته وأحلامه، والأهم أن يجد من يتقبله بأخطائه قبل محاسنه، ولم يكن من الضروري أن تسكت رهام عما حدث لأنها بهذا شرعنت لهم الاختيار في حياتها مستقبلا، فمسألة أنهم أهلها ووجب عليها احترامهم لا علاقة لها بأحقيتها في اختيار شريك حياتها، لكن الخوف من فقدان أهلها وتعصبهم الزائد لقراراتهم قد يؤدي

للخوض في تقطيع شرايين هذا الحب شريانا تلو الآخر، وما كثر المرات التي كاد ينقطع فيها هذا الشريان بين الارتباط ومحاولة الانفلات لولا ما كان كمال المنقذ الدائم لعلاقتهما في كل مرة كانت تستسلم فيها رهام للقدر ولأهلها، بل ظل متمسكا بها وبآخر أمل يجمع بينهما.

أكثر شيء أشعرني بالألم هو بدلة الزوجين تلك التي ارتديناها معا أمام الآخرين، فعندما قبلت أمي في بداية الأمر ظننا أننا صرنا زوجين تنقصهما تلك الورقة الموقعة فقط، فصرنا نخرج معا متشابكي الأيدي، لا يفرق بيننا إلا النوم ليلا، نخرج للسوق كأي زوجين طبيعيين، نقتني ما نحتاجه من مواد غذائية ومواد تنظيف أو ملابس أحيانا وأحذية، بل نتجاوز ذلك لاقتناء أواني المطبخ وبعض اللوازم المنزلية.. لم نرى في أعين من يرانا معا إلا رسالة واحدة مفادها أن رهام وكمال رفيقين مثاليين، وقد كانت تختلف تلك النظرات بين من ينبهر لوجود ثنائي جميل منسجم في هذا الزمن، وبين من يتعصب لتحرر كمال في التعامل معي بتلك اللباقة والشهامة، وبين حاسد شرير يرى النعمة ولا يبارك عليها، وقد ذكرني ذلك بآخر امرأة رأتها عيناي في محل بيع المجوهرات، لقد كانت عيناها شريرتين وهي تنظر لرجل يضع حلقات ذهبية لحبيبته، ظنا منها كالبقية أننا متزوجين، وأكاد أجزم أنها لعنت الزمن على ارتباط فتاة أصغر منها سنا بدلا منها، في محاولة إيجاد تفسير لسبب عنوستها.

أريد إخبارك يا عزيزتي أن كل ما رأيته من سعادة كانت مؤقتة، وأني أنا أيضا ما أزال عانسا، أحاول أن أرتبط بذلك الشخص الذي انتابتك الغيرة على وجوده في حياتي بتلك النظرات القاسية التي ما أزال أراها رغم أني لا صلة لي بك، ولعلك أسعد مني وتملكين أشياء لا أملكها أنا، إن السعادة لا يصنعها لباس ولا زوج و لا مال، بل تصنعها القناعة والإيمان بالقضاء والقدر.

اتفقنا بعد تفكير مطول على أن نحافظ على الصورة الخارجية لهذه العلاقة، وأن نظل زوجين أمام أنظار الكل، في حين توقفنا عن الأحلام التي قد تجمع فيما بيننا حتى في الخيال واليقظة. لكن لم نستطع التوقف عن الحب يوما حتى لو حاولنا ذلك. فقد ظل حبنا ينمو

كل يوم أكثر من اليوم السابق، ولم ينفك أحدنا عن الاهتمام بالآخر كما كنا في السابق أو ربما أكثر، فصار من اللازم أن نضع حدا مجددا لهذا الألم باتخاذ قرار حاسم سيغير مجرى حياتينا.

مرت أسابيع قليلة على الشجار الذي قام بين أمي وكمال في الهاتف ليلة إلغاء خطوبتنا وطلبنا الثاني، عادت الأمور لطبيعتها بيني وبينه، وعدنا نفكر من جديد في مصير علاقتنا، فلا أحد منا صدق نهاية هذه العلاقة وظل كل منا متشبثا ببعض الأمل ولو كان ضعيفا. وقد لاحظت أمي رجوع المياه لمجاريها بيني وبينه فقررت أن تتدخل مجددا لكن هذه المرة بتعنيفي، لولا علمي أنها تحبني فعلا وأنها تظن أن أسلوبها سليم لإبعادي عنه لظننت أنها لا تهتم لراحتي ولا لمستقبلي بقدر ما تهمها نظرة الناس لها وتنفيذ ما تلقيه من أوامر فقط. اضطررت للذهاب رفقة أختي يومها للمنزل في عطلة بينية أخرى مع اقتراب شهر رمضان، أوشكت السنة الدراسية على الانتهاء واقترب موعد ابتعادنا عن بعض، كل هذا خلف لدي موجة أعصاب واكتئاب حادين صارا واضحين على وجهي وباديين في تصرفاتي، احتجت ساعتها لحضن دافئ يحيطني بحنانه، وصدر أم رؤوم يحتويني، يشعرني أني الأساس، وأن كل ما حدث سيزول في ثوان، تخونني الكلمات حتى في التعبير عما أحسسته حينها، ظن الكل أن ما بيننا من فعل السحر والشعوذة، لكن من لم أتوقع خيانته لي والوقوف في وجهي هو أختي الصغرى، الشقية التي لطالما اعتبرتها ابنتي وأختي وصديقتي وكاتمة أسراري... ثارت اليوم في وجهي بعدما أحست هي الأخرى أني لن أتراجع عن زواجي بكمال، بل وجهت لي أصابع التهديد باختيار أحدهما، إما هو أو هم، استطاعت قول ما لم تستطع أمي قوله، لا أعرف أي حق مكنها من التحدث معي بتلك النبرة الزاجرة ؟ ولا كيف خولت لها نفسها أن تخيرني في أمور تكاد لا تفقه فيها شيئا ؟ أنساها التفكير في مكانتها التي تخاف فقدانها كلما قمت به من أجلها وما أغدقته عليها من حنان، بل اعتبرت كل شيء في لحظة من الزمن استغلالا لها كي تظل رفقتي هذه السنة. لم تكن تعلم الحمقاء أني لم أكن في حاجة لبقائها معي فأنا مع من أحبه يرعى شؤوني دون كل أو ملل، بل لو كنت قد فكرت في مصلحتي لأرسلتها بجوار أمها ليخلو لي الجو ويستوي، لم تعترف من أثر

حقدها على كمال أن كل ما قمت به كان حبا مني لها، بل أنكرت كل شيء في ثوان معدودات، كانت كلماتها خنجرا يغرس في صدري كلما تذكرته، بل وصلت بها الجرأة أن تتهمه بالتحرش بها في غيابي، وقد نسيت أنها أول من سكت عن هذا التحرش وأول الخائنين، عمت الفوضى في البيت نتيجة صراخها وهي تكرر على مسامعي أنه زير نساء ينظر لمفاتنها كلما سمحت له الفرصة، وأنه دخل عليها مرة غرفتها وهي شبه عارية ترتدي لباسا داخليا فقط، وأنه خائن يستغل غبائي للوصول إلى ما يريده من مطامع.. لا أدري كيف يبيح الإنسان لنفسه أن يطلق الاتهامات جزافا لمجرد حفظ مصالحه أو مصالح عشيرته، فحتى لو كان الأمر حبا ما كان عليها التهكم على حرمات الناس وقذفهم بما تشاء وقد نسيت أنها قد تجبر يوم الحساب على تطهير قلبي مما علق به من صور دستها في عقلي؟ أردت أن أقول لها أنها الأسوأ لأنها تم التحرش بها وسكتت عن ذلك، لماذا لم تفضحه؟ هي تعرف أنها اختلقت ما لم يحصل وزودت فيما حصل بل وادعت كل ذلك لتفرقني عنه، كما أخبرت كمال أمامي بكل صفاقة أني أخونه وأستغله لتنفره مني وتدفعه للرحيل، لم أستطع استيعاب ما حصل ولم أستطع تبرير أقوالها له لكنه كان أعلم الناس أنها صبية فاض قلبها غيرة على أختها فاختلقت ما اختلقته.. أحسست بدوار يختطفني من على سطح الأرض وأصبحت الوجوه أمامي غريبة والأصوات قاتلة، ما الذي تسمعه أذناي من هذه الفتاة التي لم أعرف فجأة من تكون ؟ ما أعجب حال الإنسان، هل يحدث كل هذا لمجرد أني أحببت شخصا لا يناسبهم ..

كان أمرا مستنكرا ما قامت به أخت رهام الصغرى، ولا تفسير لانقلابها على من اعتنيا بها طوال فترة دراستها هذه السنة، فلو افترضنا جدلا أن كمال خائن ظل يتقنص الفرص لرؤية مفاتن الصغيرة، لكان من المفترض أيضا أن تفضح الصغيرة نواياه عند أول محاولة، كما أنه من المستحيل أن تنام أخت رهام في فصل الشتاء بلباس داخلي مع أن رهام كانت تعلم يقينا أنه لم تطأ رجلاه يوما بيتها دون وجودها أو علمها، ولو افترضنا جدلا أنه قد رآها تنام عارية فما كان ذلك قصدا وهي تعلم أن أختها أباحت له التعامل مع صغيرتها كما لو كانت أخته أيضا، فلقد كان كمال يلاعبها مرارا وتكرارا في كل خرجاتهما في منابع المياه

وأماكن الثلوج وغيرها دون أن تبدي أي ازعاج منه ولا أن ترفض ملاعبته أيضا، ولنفترض أيضا أنه زير نساء، فلما لم يتحرش بأختها الأكبر منها بل الأجمل منها أيضا ؟

لقد كانت كلها اتهامات واهية من مراهقة تحاول الانتصار لأمها بعدما وجدت أن رهام لم تتراجع عن فكرتها، فكيف لشخص يدرّس مئات الفتيات الحسناوات دون أن يغتر بوجودهن أن يتحرش بأخت من ينويها زوجة له؟ وفوق كل هذا هل رهام فعلا خانت كمال كما ادعت أمامه في شجارهما في القرية، وأنها استغلته، وأنها تزجي به الوقت فقط ..؟ هل تكون خائنة دون أن تعرف ذلك..؟ لقد كان من المؤسف إطلاق كل تلك الاتهامات عن أختها التي تعلم أكثر من الكل أنها فعلا أحبت كمال بصدق، بل لم تشهد في اختها إخلاصا مثل ذلك من قبل.

لم يكن من الممكن أن أظل دقيقة أخرى بالبيت بعد كل ما سمعته من أهلي من اتهامات ومن تهديد بالطرد، فقررت حمل محفظتي ومفاتيح سيارتي ومنزلي والعودة من حيث جئت، كان مشوار الطريق طويلا، بل كانت المسار مختلفا هذه المرة، عقبات كثيرة ومنعرجات مخيفة ومراوغات من السائقين... لم أرى بدا من خفض السرعة رغم أني كنت من الحريصين على ذلك دوما، بل كان شيء بداخلي يحثني على رفع مستواها أكثر فأكثر، أو لعلها رغبة دفينة في الموت، لم أعي يومها كيف وصلت ناجية إلى عتبة البيت، ركنت سيارتي بعيدا عن المنزل على غير العادة، فلقد كنت أستعين بكمال في كل شيء تقريبا، صعدت مباشرة إلى باب منزلي الصغير، أمعنت النظر جيدا في شمالي وقلبي وعقلي تتنازعهما رغبتان، تحثني الأولى على الصعود والارتماء في حضنه مباشرة دون مقدمات، وتنهاني الثانية على الاستعانة به لإخماد الحريق بداخلي، ولم تكن نزعة عقلي قادرة على منعي هذه المرة بل لم أترك المجال له للتحدث بعدما أعطيت القيادة لقلبي هذه المرة، صعدت درجات السلم مسرعة كطفلة تبحث عن أبيها لتشكو له ما فعلته بها أمها بعد غيابه عن البيت.. وجدت الباب مفتوحا على مصراعيه كأنه يعلم بميقات عودتي، وكمال مستلق على سريره يداعب هاتفه في حركات من الملل والبحث عن ما يلهيه عن التفكير في.. لم أفكر في إلقاء التحية

هذه المرة، بل ارتميت بقوة فوق جسمه الممدود أقيد رقبته بدراعي وأضع رأسي على صدره ودموعي تنهمر كالسيل على صدره الحنون .

لم تنبس شفته بكلمة حينها إلا بعد مرور دقائق لاحظ فيها أني عدت لبعض هدوئي، فهو أدرى الناس بطقوس المساواة، أو لعله هو الآخر كان في حاجة لذلك العناق الصامت العاصف، حاول بعدها أن يرفع رأسي بيديه لينظر إلى عيناي المتورمتين إلا أني أبيت النظر إلى وجهه، لكنه لم يستسلم حتى وجد وجهي في مقابل وجهه، ونظراتي تكاد تخترق بؤبؤ عينيه

- " أعلم ما بك يا أميرة "

لم يعتريني الشك يوما في مسألة اهتمامه بي أو إحساسه بما يصيبني إلا أني كنت أشرح له في كل مرة ما أشعر به، لكن هذه المرة لم أقو على الشرح، بل استحييت مما أحمله بصدري من كلام بائس خسيس، أجبت عن جملته تلك بدموع ثقيلة تكاد تسقط من جفن العين، فما كادت تسقط حتى وجدته جالسا ينظر إلي بحزم ويمسك أطراف وجهي بيديه في محاولة لإثباته ليقول لي:

- " لنتزوج والآن، فهذا هو المكان الطبيعي الذي تنتمين إليه"

مسحت دموعي في دهشة تامة من طلبه، بل أحسست أن كل ما عانيته اختفى لأفكر فيما هو جديد، بل لم أفكر إلا لبرهة قصيرة لأقول له بابتسامة خافتة وأنا أمسح خدودي:

- " أوافق "

كاد كمال يطير فرحا بل لم يصدق موافقتي بهذه السرعة حتى أن فرحته أنستني أني مقدمة على أمر ليس باليسير، بل هو مخالفة في حق الأعراف والتقاليد والأهل، أخبرني أن زواجنا لن يدوم بهذا الشكل مطولا، بل أيام قليلة وسنخبر الكل عنه، وسيسامحنا أهلي بعد أن يتأكدوا أن كمال شخص طيب، وأن حبنا أكبر من كل شيء، كباقي قصص الحب المغامرة،

حتى أننا خططنا لكل التفاصيل، كيف سنخبر أهلينا معا بمسألة زواجنا، وكيف سنجعل الكل يحب وجودنا رفقة بعضنا مع مرور الوقت، متحابين، متفاهمين، ومتراحمين، حتى أننا فكرنا في مسألة الاستقرار في بيت واحد مجددا وما سنقتنيه من أثاث لبيتنا الجديد. أحلامنا التي نومناها لبرهة من الزمن عادت لتحيا من جديد، غرفة نوم يعمها الهدوء بفراش أبيض ناعم وأضواء خافتة، وبيت معيشة بسيط نستقبل فيه الضيوف، وآلة غسيل وسخان ماء وأوان جديدة، وصل بنا الحماس لنحدد الفترة التي سننجب فيها نرجس أيضا، إنه الاسم الذي أراده كمال لابنتنا، والاسم الذي زرع في حب الأمومة التي لم أفكر فيها يوما.. لم تعد هناك قدرة تستطيع أن تثنيني اليوم عن الزواج بكمال، بل سعادتي وأنا أخطط لتفاصيل حياتي معه لا يستطيع كائن آخر أن يوفرها لي. ضمني إليه بكل قوته وكأنه ممتن على مواقفتي، يقبلني في كل مكان يصادفه فمه، جبيني وخدي وفمي ويداي وكتفاي .. لم أمنعه لأني فعلا كنت متأكدة من قراري، فلن يمر الغد إلا ونحن متزوجين، فلم يعد هناك ما يمنعني، ولا حتى أهلي هذه المرة.

بادلته الشعور نفسه، ولم أجد نفسي إلا وأنا أستسلم لنظراته التي تتفحصني بحب، ويداه الساخنتين اللتان تتحسسان شفتاي بلطف، وخده الذي يلامس خدي بأنفاس تكاد تتوقف من أثر النزول والصعود، فصار يقترب مني أكثر وأكثر دون توقف حتى تلاصقت أجسادنا وجها لوجه فصدرا لصدر فبطنا لبطن، بل اختلطت حتى كادت تتماهى فيصعب فصلها من جديد، فأحسست بعدها أني أسقي نفسي من شعور كدت أحرم نفسي منه، كما أني أعي جيدا الآن أني أعشقه إلى ما بعد حد الجنون ..

عادت لمنزلها في المساء وأثر الصدمة بادية عليها يفقهها الناظر دون تمحيص، ورائحة كمال تفوح من كل أطراف جسدها كعطر جديد، لم يكن من الحكمة ما قاما به، لكن من الصعب أن نلوم محبين على المغامرة ولا شابين في أوج شبابهما على الاندفاعية، فكل من قاموا بالزلات في الحب لم يندموا لا لشيء سوى لأنهم قاموا بها عن حب، لا أخول نفسي دفاعا عما حدث، لكني أحببت يوما فعلمت أن كل شيء ممكن الحدوث في الحب والحرب

بغض النظر عن شرعيته، ما جعل الندم يخفي ظلاله لديهما رغم حبهما لبعض هو قرار زواجهما رغما عن الكل في اليوم الموالي، فما منعهما منه اليوم وجود وثائق رهام في بيت أهلها فقط، لذا قررت أن تعود لإحضارها دون أن تخبر أحدا بما هي عازمة عليه، حتى تتحسن الأمور بين عائلتها وبين من تحبه، فالزواج ليس عيبا ولا أحد له الحق في التدخل بين شخصين تحابا فأرادا أن يغتنيا بالحلال عن الحرام.. فضلت رهام رؤية كمال فور استيقاظها في الصباح الموالي كما عهدت منذ بداية لقائهما، لكن ما لم تعلمه أن تلك الرغبة في رؤيته لها دافع آخر، فمسألة خوفها من التراجع وخيانة كمال لا سبيل لإبعادها سوى النظر في وجهه وتقبيل جبينه واستنشاق عطره الذي تعشقه قائلة :

- " سأعود بسرعة يا.. أنا" نداء كان يخصني به .

توجهت صوب مدينتها التي تبعد بمئة كيلومتر بعد محاولة ليست بالهينة لثنيه عن مرافقتها، فهي لم تكن قوية أكثر من الآن ولم تكن متأكدة من اتخاذ قرار في حياتها كما هي متأكدة من زواجها به. وجدت الكل يحاول تمثيل الهدوء بعد دخولها، لم تعر أحدا اهتماما بل ألقت التحية واتجهت صوب غرفتها مباشرة، تبحث في دولابها عن وثائق هويتها ودفتر حالتها المدنية، دخلت أمها بغثة تنظر إليها نظرات شك وريبة، كأنها تعرف أن هناك شيئا يطبخ وراء ظهرها، فهي أكثر الناس تشكيكا وظنا بالآخرين، بل اكتسبت نتاجا لتجاربها قلة ثقة كبيرة تجاه كل من يصادفها حتى لو كانت نيته حسنة، ولا يحق لنا لومها عما أصبحت عليه أيضا . تساءلت:

- " ماذا تفعلين "

لم تتجاوب رهام مع السؤال باندفاع ولا ما يثير الشك لديها، بل أخبرتها أنها تحتاج بعض المستندات لأجل العمل، فأردفت الأخرى أنها تريد أن تتحدث معها في موضوع مهم فلم يكن عليها سوى الموافقة والتخلص مما قد يقف عائقا في الوصول عند كمال الذي ينتظرها في مدينة بني ملال ليعقدا قرانهما اليوم دون تأخر.

اتصل بي كمال ليخبرني أنه في مدخل المدينة ينتظر عودتي لنعقد قراننا، زاد التوتر بعد أن وجدت صعوبة في التخلص من أمي فطلبت منه الانتظار في أحد المقاهي إلى حين عودتي، وأني سأعود في سيارة أجرة لأصل بسرعة ونلحق بمكتب العدول قبل إغلاقه، أحسست أنه متوتر لحد كبير وأنه خائف من أن أخون ثقته للمرة الثالثة فلا أقدر على الصمود أمام أهلي مجددا، ففكرت أن أعزز ثقته بي فوعدته وعدا حرا أني قادمة بل أقسمت أني سأكون زوجته رغما عن الكل. دخلت الغرفة حيث تنتظرني أمي وأخواتي، وجدت الكل يتجه بأنظاره للأسفل ما عدا والدتي، فعلمت أن هناك أمرا يخص كمال مما لا شك فيه، لم تمر ثلاث ثوان حتى انطلقت شفاه أمي تتحدث بما لا تطيقه أذناي:

- "رهام، لقد حدث مستجد البارحة أثناء غيابك، فقد حضر ضيف عند والدك، تقدم ليطلب يدك للزواج، فوافق أبوك لأن الرجل مناسب لك ولا عيب يذكر فيه.."

أحسست أن الأرض لم تعد قادرة على حملي من شدة ثقل جسدي عليها ولا السماء تبعد عني حتى كدت أدك دكا بينهما، اختنقت أنفاسي وارتفعت حرارتي وتجهمت ملامحي، لكني تذكرت كمال وصورته أمام مكتب العدول حيث ينتظرني، فعدت لقوتي مجددا، فلم أجد بدا من إخبارهم بحزم أني لست مسؤولة عن موافقة أبي على تزويجي بذلك الشخص الذي لا أعلم من هو ولا من أين جاء ولا يهمني أن أعلم أيضا، فأنا على وشك أن أتزوج ممن أحببته وهو ينتظرني الأن. امتقع وجه والدتي فبدأت بالصراخ مجددا كعادتها، حتى اختلطت دموعها بعرقها من هول الصدمة، لم تنتظر مني يوما أن أخالف قراراتهم، أو أن أفضل أحدهم عليهم، بل لم تكن من المصدقين لما أصبحت عليه، فهي منذ أن تعرفت على كمال وهي ترى أني لم أعد طبيعية بل مسحورة كما تعتقد، أو ليس الحب سحرا يا أمي، فهو ذلك الشعور الذي ينقلنا من طبيعتنا كبشر تائهين بين شخصيات متعددة تخدم كل من نلتقيه على حدة، إلى كيمياء ساحرة متبادلة بين اثنين لا ثالث لهما .

توقفت الأم عن الصراخ واكتفى الكل بالبكاء، فلعل الكل اقتنع أن رهام لم تكن تمزح في كلامها، بل هي فعلا مقدمة على فعل ما تقوله، ودفتر الحالة المدنية بيدها يؤكد ذلك .

دخل أب رهام إلى البيت وأثر الدهشة بادية عليه هو الآخر، فهو آخر من يعلم بأحداث قصة رهام وكمال أو هذا ما تهيأ لهم جميعا، فلعله يدعي عدم معرفته بالأمر لرفع الحرج عن ابنته.. حاول أن يسأل عن سبب بكاء الكل، فوقعت عيناه على يدي رهام، فتحول سؤاله عن سبب حمل رهام لوثائق الهوية، وتدخلت أمها لتبعده عن الموضوع، لكن رهام أخبرته مسرعة أنها ستتزوج اليوم.. تراجع بخطواته إلى الوراء مصعوقا، فحاول الاستفسار لعل ظنه يكون خاطئا، لكن رهام أكدت له ما تنويه دون تردد، فموافقة أبيها على زواجها بشخص لا تحبه زيادة على ما حصل بينها وبين كمال أمسا كانا دافعين قويين للصمود في وجهه دون خوف ..

لم يقدر الأب على الصمود أمام ما سمعه، فالمسألة بالنسبة له مسألة عرض وشرف بل حياة وموت، قفز الكل باتجاه جسد الأب الممدد في الأرض في حالة فزع، ولم يكن على رهام سوى إمساك يد أبيها محاولة إيقاظه بعدما ظنت أنها قتلته، كل أحاسيس اللوم والندم والحسرة تملكت قلبها، كأنها ظنت أن ما قامت به أنانية منها أمام واجبها تجاه أهلها، توجه لها الكل بعبارات اللوم والشتم والسب، فحاولت الأم طردها من البيت مخبرة إياها أنه لن يسامحها الكل إن وقع مكروه لأبيها، وأن خروجها من البيت وزواجها اليوم بمثابة انهيار لهذه العائلة، بل عقبة في زواج أختيها مستقبلا، فخروجها اليوم من البيت يعني شيئا واحدا، ألا وهو موت رهام بالنسبة لعائلتها، ثم أردفت قائلا :

- " كدت تقتلين أباك يا رهام من أجل رجل تحبينه، بل تخليت عن عائلة بكاملها من أجله، أنت أنانية ونرجسية، فضلت مصلحتك على مصلحة خمسة أشخاص آخرين، تعلمين أن زواجك بشخص لا نرضى به لك زوجا سيمنع الكل من الاقتراب

لك يوما، بل سيمنع أي شخص من الزواج بأختيك، وهكذا ستقترفين جريمة في حق كل من أحبوك وخدموك يوما . "

وقالت الأختين في هيستيريا من البكاء تتناوبان على الحديث:

- " نحن أختيك الصغيرتين يا رهام كيف تتركين لنا العار وتعيشين سعيدة مع شخص في مكان آخر، كيف يرتاح لك بال وأنت تعلمين أن لا معيل لنا غيرك.
- لا تتزوجي بذلك الشخص يا رهام فهو مجرد انتهازي طماع كاذب يريد أن ينجح في صراعه معنا، فسرعان ما سيتخلى عنك بعد تحقيق ما يريده، نرجو ألا تتخلي على هذه العائلة ولا تدمري كل ما بناه أهلك من جسور للحفاظ عليها، فلن يرحمنا أحد من كلامه، بل سنضطر للرحيل من هنا ولن نسامحك يوما على ما فعلته بنا.. "

لم يكن أمامي من حل سوى الخذلان، أحكمت القبضة على خنجر الغدر وغرزته في فؤاد كمال للمرة الثالثة، تركت له رسالة أخبره برحيلي ثم حظرته في كل وسيلة يمكنه التواصل معي فيها، عرف أني خنته ولعله اعتقد أني تلاعبت به، فكان كريما بأن ترك رسالة لصديقتي يقول فيها :

- "اعتن برهام." كان قد نوى الرحيل.

مضى أسبوعان على آخر رسالة أخبرتُ فيها كمال أني متأسفة على رحيلي بهذه الطريقة وأني لن أستطيع الزواج به وأني أتخلى عنه مرة أخرى، لم أجد سبيلا للرحيل إليه يومها، فكل توسلاتهم جعلت رغبتي في الحياة منعدمة، بل لم أعد أرى أن وجودي في هذه الحياة سوى لخدمة عائلتي، فحتى لو أردت أن ألتفت لها يوما كما سيطلبون مني لن أستطيع، فقد خسرت كلما يمكن أن أقدمه في علاقة أخرى، وفقدت الرغبة في الحب وفي الحياة وفي الانتماء لشيء لم أختره، ولا حق لي في اختيار حياة أخرى خاصة بعيدا عنهم ما دمت قد ضحيت بما أريده، تقبلت قضائي وقدري فرضيت به، لكن الخنجر الذي ما زال

مغروسا بداخلي لا يعلمه سوى الله، هو خيانتي لكمال بتلك الطريقة، وابتعادي عنه دون أن أشرح له ما حدث، أعلم أنه كان ليساندني في اختياري كيفما كان، بل أعلم علم اليقين أنه كان ليختار أن يظل بجانبي حتى لو لم نتزوج إلى الأبد .

لم تعد هناك وسيلة تصلني به فقد حظرته من كل وسائل التواصل، يقتلني ألم البعد عنه دون أن أعرف أخباره، فهل يا ترى قد بدأ حياة جديدة مع شخص جديد انتقاما مما فعلته به؟، اتصلت بي رغد صديقتي اليوم لتسأل عن حالي فهي أكثر الناس علما بحالي بعد غياب كمال، وأكبر المساندين بل لا وجود لسند غيرها أساسا، انهالت علي بكل عبارات اللوم على الطريقة التي خذلت بها الرجل الذي بادلني الحب بصدق، بل لطالما نادتني بسبب الأمر بالجبانة، لكني لا أرد عليها لأني أعلم أن لا أحد سيفهم ما حدث يومها، بل لا أحد سيحدث له ما حدث لي . فمسألة التخلي عن حياة مقابل حياة هي مسؤولية لن يقدرها الكثيرون ولا يقوى عليها الكثيرون، وأقسى ما في الأمر ليست مسألة التخلي عمن نحبهم من أجل حياة الآخرين، بل كوننا خائنين في أعينهم.. طلبت مني رغد في نهاية المكالمة أن أترقب رسالة سترسلها لي بعد ثوان، لكن بشرط عدم الرد عليها لأنها لن تتفهم ما سأحس به .

- " رهام . لست أؤاخذك على كل الوعود والعهود التي نكثت بها، ولا على أية لحظة ضعف اعترتك فاتخذت فيها قرارا رأيت فيه صالح عائلتك، وإن كان على حساب قلبينا، ولست ألومك على اغتيال كل حلم تعهدناه بالرعاية حتى شب واستوى عوده.. وإني أسامحك على كل ألم أحسست به وما زلت أحسه، لكن أكثر ما آلمني هو أن تلقيني خارج حياتك في طرفة عين بعد كل ما عشناه، ما كان عليك حظري في كل وسيلة يمكنني الاتصال بك فيها، كنت لأساندك رغم اختيارك الرحيل ورغم ما في الأمر من ألم، قد يكون اختيارك البعد فرض عليك بالقوة، لكن اختيار حظري لا أحد فرضه عليك، بل كان اختيارك .

لكن سأخبرك سرا. أسامحك على كل شيء يا رهام، أسامحك خيانتك الوعد وتدميرك الحلم وحظرك الرقم، أسامحك على كل شيء والله على ما أقوله شهيد، لا

أحمل لك غلا، ولا يمكن لقلب أحبك بكل قوة أن يفعل عكس ذلك وإلا لما اعتبر حبا، كوني قوية واصمدي وحققي ما تبتغينه فرغم كل شيء أنت إنسانة رائعة وسيدة كل النساء . "

كمال.

لا أعرف هل كان من المفترض أن أسعد برسالة كمال، لكني تيقنت أن قلبي اليوم قد أخذ نصيبه من الحياة، تمنيت لو أنه أمامي لأخبره أن ما ابتغيته من الحياة هو أنت وأن برحيله من حياتي رحلت كل الرغبات والأحلام ولم يظل سوى أحلام الأخرين، وأن غفرانه لي لم يغير شيئا بداخلي، فأنا أكثر الناس علما أنه قد سامحني، لكن كيف سأسامح نفسي؟ هل تعلمون ما أكثر ما يمكن أن يعجز عنه الانسان، إنه مسامحة الذات، كيف أخبره أني أعيش ألما ينخر قلبي وروحي قبل عقلي وجسدي، ألم فراق لم أحسب له يوما حسابا، كيف لي أن أحمل هاتفي بالساعات لأكلمه وأسمع صوته الذي يبتعد بي إلى عالم آخر، وكيف لي أن أعيش في منزل لا يوجد فيه بجانبي، لا أعول عليه فيه لإحضار حاجاتي كي لا أخرج وأخالط باقي الرجال غيرة علي، كيف لي أن أسوق سيارتي وأجلس على مقعد كان يقعد عليه لمدة سنة كاملة، كيف لي أن أعود لعملي دون أن أبحث عنه بنظراتي في زوايا الساحة، أو في القاعة المجاورة، أو أغار عليه من ارتياده للمقصف، كيف لي أن أتحمل وجود امرأة أخرى في حياته يوما، وكيف لي ألا أرى وجهه مجددا.. أعرف أنه سرعان ما سينسى وجودي، فما أسهل علينا أن ننس أشخاصا ظلمونا أو تخلو عنا رغم أننا أحببناهم بصدق في يوم من الأيام، لكن كيف سأنساه بعد كل ما عشته معه، ولما لم يتفهم أهلي هذا الحب يوما؟ أعل أنها أسئلة لن أجد لها جوابا، فما أعيشه لوحدي دون أن يشاركه معي أحد، لن يتفهمه أحد أيضا، وما علي سوى تقبل الهزيمة والخوض في إنجاح الحياة التي رآها الأخرون مناسبة لي دون أن يعيروا رغبتي اهتماما كأنهم من يمتلكون الحقيقة المطلقة .

انقضت أسابيع لم تتذكر فيها رهام عملها، فبعد أن أخذت إجازة طويلة الأمد جاءت العطلة الصيفية لتمدد فيها وتمنع لقاء العشيقين مجددا، لم يكن هناك سبيل للقائهما بعد انتقالهما من تلك المؤسسة، بل أصبحت احتمالية العودة منعدمة، ليس لأن المدينتين بعيدتين، ولا لأن رغبتهما في لقاء بعضهما انعدمت، بل لأن رهام قد وافقت على زواجها بسليم، فبعد تصالح أفراد العائلة وعودة المياه لمجاريها، عادت الأم لتذكر ابنتها التي تدعي أنها بخير وأن ما قامت به لا يصل مرحلة التضحية بسعادتها مقابل سعادة الآخرين بأن أباها قد وافق على سليم زوجا لها، لم تكن لرهام أدنى ردة فعل، فمن كانت تثير عليه الفوضى قد اختفى، وما قد يحرك المشاعر بداخلها عدمته بيديها الاثنتين .. أشارت برأسها بعلامة القبول لتفادي مجرد النقاش في الموضوع حتى، كانت علامات الفرح تتطاير من عيني أم رهام، فهي أكثر الناس حبا لسليم، وكيف لا تحب من ادعى عليها الحب والصدق وباع الأوهام واشترى القلوب بالمال، ظنت أن رهام مجرد صبية لا تفقه في الحياة شيئا، وأن اختيار شريك حياتها قد يدمر تلك الحياة، الحياة التي يشاركانها فيها أيضا.. بينما الأم تختال في أركان البيت تخبر الكل أن موعد حفل الخطوبة سيكون قريبا، تجلس رهام في ركن غرفتها ووجهها يكاد يخلو من أي تعبير، كأنها جسد شاحب مرتخ يخلو من روح، منزوية تحمل حاسوبها تتأمل صورها مع كمال. ففي كل صورة حياة، وفي كل لحظة عاشتها معه كتاب قائم، ظلت تتوقف عند كل صورة على حدة لتتفحص ملامح الرجل الذي كان بالقرب منها يوما، لعلها تستشعر وجوده بجانبها، استوقفتها صورة الجبل حيث حملها على كتفيه، فكثيرا ما كان يحملها كطفلته الصغيرة على كتفيه كلما شعر أنها لا تقو على الصعود أو المشي أو أحست بتعب.. وصورة الثلج حيث يقف خلفها يخفي نصف وجهه عنها وهو أسلوبه في التقاط الصور منذ تعارفا أول مرة، يخفي نصف وجهه حينما يقف وراء ظهرها تعبيرا على أنه ظلها الحارس أينما كانت.. تحركت بداخلها موجة من الألم ذرفت معها دمعة براقة تكاد تسقط من عينها إلا أنها التقطتها قبل السقوط، ظلت على حالها تسحب الصور في وضع تنازلي وتضع يدها على قلبها حتى غفت وهي جالسة جلسة طفلة

يتيمة لا تجد من تشكو له حزنها، ولا من يمسح على رأسها ويعترف لها أنه قد أخطأ في حقها فترضى بعدها بعض الرضى .

استيقظت على صراخ أمي، وهي تشكو نومي إلى ما بعد الظهر، فأنا منذ مدة لا أنام حتى تدق الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ولا أقدر على الصحو إلا بعد الثانية عشر ظهرا. فقد أصبحت صحتي تستدعي فحصا في أقرب وقت، لم أعد أقوى على الوقوف ولا القيام بأشياء تستدعي مجهودا، بل مر أسبوع على آخر مرة لم أصحو فيها صباحا فأهرع إلى الحمام لأتقيأ، أظن أن جسمي لم يتعود بعد على النظام الذي قاطعته في بيتنا لسنة، بل لربما التعب النفسي والإرهاق كفيلين بتدمير جهازي الهضمي. كنت متأكدة أن مرحلة التذمر قد بدأت بعد أن لاحظت أمي غثياني المتكرر في كل صباح وخصوصا هزالة جسمي الملحوظة، فلم أجد حلا سوى أن أتناول الطعام بشراهة لتتأكد أني بخير، فأنا لا أقوى على ظنونها مجددا، زيادة على أن شهيتي تحركت شيئا ما في اليومين الأخيرين، أصبحت كالآلة جامدة الإحساس، عديمة الرحمة بنفسي، ومليئة بالكره للعالم من حولي، لا أرى ثقبا واحدا منيرا، ولا أمل لي في الحياة إطلاقا، صرت ألبي طلبات الآخرين بخنوع تام، بل أعيش فقط بناء على رغباتهم، فقد أصبحت لي رغبة دفينة في أن أنتقم من نفسي شر انتقام، ولعل أخْير طريقة وأجودها زواجي من سليم .

اقترب موعد عقد القران، وها أنا الآن أجلس مكبلة اليدين، أسند رأسي على حائط بارد برودة قلبي، أرتدي قميصا أخضرا فخما وأمد يدي الجافة لنقاشة تخط عليهما خطوطا ومنعرجات كأنها حياتي المبعثرة، لا أرى فيهما جمالا، بل تذكرت عبرهما يوم أقسمت على ألا أضع حناء إلا وأنا أتزوج كمال، القسم.. كلمة لطالما نطقتها أمامه، لكن القدر أراد لي غير ذلك، فوجدت نفسي أنكث كل يمين أديته، بل أعيش حياة لم أخترها ولا عملت على إنجاحها .

يحوم من حولي أناس لا أعرفهم، يزفونني لشخص أكرهه، بل أعاف وجوده بالقرب مني، شخص كنت أظن أني أحببته في يوم من الأيام، لم أكن أدري أنه كان شخصا مناسبا لي

ولعائلتي لا غير، وما أكثر ما نصبر عليه فقط لكونه مناسبا لنا. تبدلت ملامح الحاضرين فجأة، فصرت أرى أم كمال وحسناء بجانبي تمسك إحداهما بثوبي والثانية تمسح لي جبيني من بعض قطرات العرق بمنديل شفاف رقيق وتحاول صد شعيراتي عن مداعبة عيناي برفق، أما البقية فوجوه تتراوح بين وجوه أعرفها وأخرى مألوفة وأخرى غريبة عني تماما، وبينهم كمال في زاوية الباب يتساءل عن وقت المغادرة لأنه تعب من هذه التقاليد التافهة، بل ينتظر يوم القران بفارغ الصبر..

تسللت من بين شفتاي ابتسامة مائلة خفيفة موؤودة، بذنب الآخرين قتلت، فتبددت معها الوجوه المعروفة والمألوفة معا التي تمنيت حضورها يوما فأيقنت أني بدأت أوشك للوصول إلى مرحلة الجنون، وما أكثر من أحب، فصدق، فجن جنونه. وما إن استعذت بالله من الشيطان حتى عادت تلك الوجوه المكفهرة التي يشق السواد تفاصيلها للظهور، تناول الكل الوليمة بشراهة والموسيقى تملأ المكان، والزغاريد تصيح بين الفينة والأخرى، بينها قلوب سعيدة وأخرى تدعي السعادة، وأطفال يركضون بين ممرات الغرف، وأهلي يرحبون بالمدعوين لحفل الحناء.. انتهى حفل الحناء وتقرر حفل القران بعده بيومين، لم يكن لرهام دخل في أي تحضير، بل كانت مجرد مومياء ترتدي زيا لتعرض زينتها على أهل العريس، كان الكل في بهجة ما عداها، لم يكلف أحد من أهلها نفسه بمعرفة شعورها، وهم أدرى أنها أتعس البشر في الكون يومها، بل ادعى الكل أنها سعيدة يغلب عليها الخوف من الزواج كباقي العرائس لا غير.

ظل البيت مليئا ببعض أفراد العائلة القاطنين بعيدا عن المدينة إلى حين موعد عقد القران، يحضرون الحلوى، ويجهزون اللباس وينظفون الغرف، يحاول بعضهم بين الفينة والأخرى تفقد العروس، وإلقاء بعض النكت لتخفيف التخوف الذي تعيشه. لاحظت الأم والخالة تقيؤ رهام بكثرة، لم تكن حالتها الصحية طبيعية، بل وصلت لمرحلة شككت الخالة فيها فسألت أختها :

- " أ تظنين أن رهام وسليم التقيا معا قبل موعد الزفاف؟ فالرجال لا يستطيعون الصبر في مثل هذه المناسبات ."

تجاوزت أم رهام كلام أختها بضحكة تقمصت فيها دور غير المبالية، فأجابت :

- "هيهات هيهات، فرهام لم تترك له فرصة لقائها خارج البيت بعد، بل لم تره منذ يوم الخطبة "

تدبدب الشك لقلب أم رهام من كلام أختها، بل صارت تتمنى وصول يوم الغد بسرعة البرق فتعقد رهام قرانها لتتخلص من العبء الذي أثقل كاهلها، فهي على علم أن رهام كانت منذ شهر وبضعة أسابيع على علاقة غير محروسة بكمال، وأن حبهما لم يكن يعرف المستحيل ولا الحدود.

لم يعد بيني وبين إمضاء شهادة وفاتي سوى ليلة واحدة، ليلة ليست كباقي الليالي، ليلة أشد سوادا لا يظهر فيها لا القمر ولا النجوم، كأن السماء هي المخلوق الوحيد الذي يحس بما أقدمت عليه، وأن ما أرمي فيه نفسي نار جعلت من أعضائي حطبا لها، ومن قلبي دما يتقاطر كالبنزين، ومن عقلي حطبا جافا لها، وروحي منفاخ يزودن نارها ويسعرها. أتألم في كل جزء من داخلي، كأن قلبي أطلق إنذارا فتداعى له سائر الجسد، إلا عيناي، فقد أضربتا على البكاء لكثرة ما ذرفتاه، لم تعودا قادرتين على إعطاء المزيد بل جفتا جفافا تاما، حتى أني تمنيت لو يطفئا تلك النار ببعض القطرات فحسب، فبكائي جاف ظاهرا وغزير باطنا .

استيقظت باكرا بعد أن غفوت بصعوبة، وجدت الكل يتساءل عن موعد حضور العدل، منهم من يتساءل عن وجبة الفطور ومنهم من يطالب بإحضار ملابسه من المصبنة.. يحاول الكل الظهور في أحسن صورة، لم يفقه أحد لوجودي بجانبهم، بل كلهم منشغلون بالتحضير للحفل زوالا قبل قدوم الضيوف والعريس والعدل، فطنت أختي أخيرا لوجودي، فصرخت عاليا تتساءل عن سبب تأخري عن محل التجميل، انتابتني رغبة ملحة في الضحك لأول مرة بعد زمن طويل، أن أضحك بصوت مرتفع وأخبرهم أني في حاجة لمحل

يجبر قلبي المكسور، روحي المقهورة، عقلي المبثور وكل ما بداخلي قبل وجهي الشاحب، لكن تلك الرغبة في الضحك انقلبت إغماء وسقوطا على الأرض كجثة هامدة بلا حراك، فتحت عيني لأجد الكل يلتفّ من حولي في حالة من الهلع، أحدهم يحرك المفاتيح وآخر يرش عطرا وآخرون يوشوشون فيما بينهم :

- "لقد أصابتها المسكينة عين أو طاقة سلبية."
- "لابد أنها لم تنم أمس فأحست بالإرهاق ."
- " لا تجزعوا هذه مخاوف تنتاب كل فتاة."

صرخت صرخة مدوية أطلب فيها من الكل أن يلتزم الصمت، لم أعد أقو على سماع صوت أحد، بل لم أعد أريد رؤية أحد أمامي.. تفاجأ كل من حولي بتصرفي الفجائي، بل لم يتقبل بعضهم تصرفي ذلك فهمّ بالرحيل، لم أفكر في ما شعر به كل من كان بجانبي، بل كان شيئا واحدا يدور بذهني، ما الذي يحدث معي؟ ما سبب غثياني في كل مرة؟ ولما أصبحت ضعيفة البنية بهذا الشكل المفرط؟ يكاد عقلي يتوقف خوفا مما أفكر فيه، كيف يحدث معي هذا؟ ولما لم أفقه في الأمر إلى اليوم؟ وكيف سأخرج نفسي من هذا المأزق قبل أن أعقد قراني إن صح ما أفكر فيه؟

استيقظت كل الأحاسيس دفعة واحدة بداخلي بعد موتها فجأة، صار كل جزء مني يدق مدق الجرس، وتنبهت كل مجاري الدم وانتفخت، كأن جسدي ينبهني بحدوث أمر غير مألوف، عجزت عن التعبير عما أشعر به، وتمنيت أن أصرخ مجددا لكن لأقول هذه المرة :

- " لا أريد الزوااااااج ."

حاولت السيطرة على نفسي، فلا سبيل لمعرفة شيء الآن، ولا طريقة لي لأنفض عني عبء هذا القران، بل أي تصرف مني في هذه اللحظة سيخلق أكبر ثورة في تاريخ عائلتي والتي لن تحمد عقباها أبدا. تناولت القليل من الطعام لأقوى على الوقوف رغم ضعفي، ولأتمكن

من الذهاب لمحل التجميل في الوقت، فلا مهرب من الأمر، ولعلها فرصة إلاهية لأحضر معي اختبار حمل من الخارج .

ما يزال كل ما أفكر فيه مجرد شك لا أساس له من الصحة، فلا يخفى على أحد من أقربائي أني أعاني مشكل القولون العصبي، ومن أثاره الإغماء والغثيان والعصبية أيضا.. بداخلي شيء يتمنى لو أن حملي أمر صحيح، وآخر يدفعني للخوف أكثر من كوني سأصير أما، فالعالم لن يرحمني ولا سيرحم ابني أو ابنتي، ولا سبيل لترك روح بريئة وإجهاضها، كما لا أمل لي في عودة كمال بعد أن حظر اتصالاتي بدوره .. اختلطت علي الأحاسيس وغابت عني الحلول، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم .

توجهت رفقة أختاي لمحل التجميل مرغمة، أخذ منا تصفيف الشعر وتجميل الوجه ساعة كاملة وما صار بيننا وبين العقد سوى ساعة فقط، ما يشغل تفكيري هو كيفية الحصول على اختبار قبل عقد القران، فلا يمكنني طبعا الزواج من سليم وأنا أحمل طفل شخص آخر، ترادفت دقات قلبي في طريق العودة، أتأمل الطرقات لعلي أجد صيدلية، تكاد دموعي تتساقط دون قدرة على كبحها، لأنها أكثر من يعلم أني لن أجد سبيلا للهروب بعد حضور سليم ليقلّنا للبيت .

لما يحدث لي كل ما يحدث ولما يلعب معي القدر لعبة الغميضة ؟ اليوم أعقد قراني بدون من أحببته، وأبكي بدل أن أفرح، ورغم حبي الكبير لكمال أتمنى أن يكون ذلك الحمل الذي تمنيناه معا وخططنا له مجرد شك . لم أجد باب صيدلية واحدة مفتوحا في طريقي، ولا مجال للخروج بعدما وصلت لباب المنزل، فالكل ينتظرني أمامه، يرتدون أفخم القمصان والأحذية، وتتهلل وجوههم وهم ينظرون لعروس مزينة يفتح لها زوجها باب السيارة، وهم يرقصون على إيقاعات شعبية مختلفة.. يمارس الكل طقوس الاحتفال على جثة، لا يعرف أحد ممن يرقصون الآن أن هذا الحفل قد يتوقف في أية لحظة، بل لا يجب أن يستمر.

جلس العروسان في المقعد المخصص لهما والمزين بمختلف أشكال الورود والأثواب، كان فراش شوك وحميم في عينها، توقفت الموسيقى فجأة وركزت العيون نظراتها على العروسين بعد قدوم العدول، فجلس أبويهما بجانب كل منهما.. ينتظر الأهل ما سيقوله العدول لإكمال مراسيم هذا الزفاف.. وتنتظر رهام لحظة التعبير عن رفضها لهذا الزواج، تبادل الأبوان بعض الوصايا والشروط بينهما، وانتهى العدول من سؤاله حول موافقة سليم عن رهام زوجة، والذي عبر عن موافقته بسرعة تامة موقعا دون تفكير، فحان دور رهام التي تجلس جامدة يكاد القلم يقع من بين أصابعها، لا تعرف الكلمات كيف تترادف في شفتيها لتنطق بعدم القبول .

- " أقبل "

توالت الزغاريد والتبريكات بعد توقيع رهام على العقد، وتنهدت بعدها أم رهام تنهيدة ثقيلة، لقد أزاحت بها جبل الخوف الذي كانت تحمله، فهي أكثر الناس علما بعدم رضى رهام عن سليم بل بكرهها له، ليس الغريب في الأمر تبريكات الأهل ولا سعادة العريس رغم علمه بعدم رغبة رهام في كل ما يحدث، بل الغريب لما تراجعت رهام عن رغبتها في إعلان رفضها في آخر دقيقة ؟

توقفت كل الأصوات وكأن لا أحد موجود معي في القاعة، لم أعد أسمع إلا صوتا واحدا يتردد صداه بأذني وأنا أحمل دفتر التوقيع بيدي، إنه صوت كمال، إنه الصوت الذي يستحيل أن أخطئ فيه، وكيف أخطئ فيه وهو الذي أحببته قبل صاحبه.. يطلب مني بصوت هادئ، وديع، ورزين أن أحافظ على ثمرة حبنا بكل ما أوتيت من قوة، وأن تعبي سينتهي قريبا، لم أستوعب رسالته، ولم يكن من المهم أن أتساءل عن سبب سماعي لصوت شخص بعيد عني، بل هو في الحقيقة أقرب لي من كل الحاضرين، فلطالما كنا على اتصال روحي منذ زمن، وما سمعته بدون شك رسالة روحية منه لي لا يمكن أن أتردد في تطبيقها.

وقعت دون تردد بعد اختفاء صوت كمال مباشرة، دون أن أفكر في عاقبة ما ورطت فيه نفسي، كانت كل المشاعر المرتبكة تسيطر علي، بل تمكنت مني حد الموت، حتى انتهى بي الأمر منصرفة بسرعة من قاعة الحفل وأمام أنظار الناس الحاضرة، لعلي أجد متنفسا أسترجع فيه روحي المسلوبة بتوقيعي.. اعتذرت عن عدم استطاعتي مشاركة الحفل لأني أشعر بمغص في معدتي، لكن أمي لم تكن من المقتنعين، حتى أنها انتظرت مغادرة الضيوف على أحر من الجمر كي تستكنه خبايا الأمور، بل طالبتني مباشرة بالكشف عند أقرب طبيب قبل مغادرتي لبيت سليم غدا.

ظل طلب أمي يتردد كعاصفة هوجاء بين ناظري، فلا الرفض كان ليجدي نفعا ولا الهروب نافع في مثل هذه الظروف، لست متيقنة من مسألة حملي، لكن شيئا بداخلي يخبرني أني أحمل طفل كمال في أحشائي، أذكر جيدا يومها - حينما كنا نخطط لتسمية ابنينا زياد ونرجس- أن كمال كان أسعد إنسان لمجرد التخطيط للأمر، فكيف سيكون وضعه حينما يعلم أني أحمل نرجس أو ربما زياد؟، تذكرت مباشرة بعد برهة سعادة أننا منفصلين ولربما يكرهني كرها كبيرا لما قمت به، فلا شيء يستطيع أن يشفع لي أمامه، ولا أن يمحو الألم الذي عاناه بسببي، وخير دليل يوم حاولت أن أتواصل معه بعدما تمكن مني الألم والشوق، فقد عاملني كغريبة لم يعش معها كل ما عاشه، بل سألني في أسطر محتشمة يكاد يتنازل لكتابتها عن سبب مراسلتي له ولما عدت بعد أن رميته كما يقول، وقد صدق. أي شيء أريده منه الآن؟ هل أبحث عن ألم جديد ألقيه في فؤاده؟ مهما ظنه بي من سوء أو ظنه من يقرأ هذه الكلمات فإني رغم كل ما صنعت به أحبه، فعلت ما فعلته لأني ضعيفة، فأنا امرأة دون رأي ولا سلطان..، عجزت يومها عن إخباره أني لم أخنه وأني أخبرت الكل أني أريده، لكن خيّرت بتوسلهم بينه وبين حيوات أشخاص لا ذنب لهم بعدما رفض الكل مساندتي، وأن سبب التخلي عن موقفي كان من أجله أيضا، لأني تيقنت أنه لن ينعم بحياة طبيعية معي، بل ستسلب منه حريته عند ارتباطه بأسيرة، أعلم أنها أعذار أوهن من بيت العنكبوت لكن هذا كل ما استطعت قوله.. وعجزت أيضا أن أخبره أن سبب مراسلتي له أني اشتقت له حد الموت، حد الغلبة، وحد الألم، بل أن روحي تكاد تخرج من

بين أضلعي، وأن الألم الذي أعيشه قابعة في الفراش أنتظر دخوله علي أقسى من سكرات الموت نفسها..

مر يوم أمس بصعوبة تامة حاولت فيه صد كل الأفكار السيئة لكنها أبت إلا أن تزيد من تعقيد حياتي بسعرات زائدة، تظاهر الكل بالهدوء بعدما حصل في حفل عقد القران، وهم الضيوف بالمغادرة في اليوم الموالي بعدما انتهى الحفل وتأكد الكل أني سأغادر البيت دون بهرجة بل في هدوء تام بعدما عاد سليم ليأخذني إلى بيتي الجديد أقصد مقبرتي الجديدة، لا أنكر أن قدوم سليم لأخذي قبل الوقت المحدد قد عتق رقبتي من أمر كان قد يكون محتوما لو ذهبت ساعتها للطبيب رفقة أمي، بل كانت لتكون فضيحة كبيرة عندما تكتشف أني تزوجت بشخص وأنا أحمل طفل شخص آخر..

غادرت رهام رفقة سليم قبل ظهر اليوم الثاني من عقد قرانهما، يبدو أن سليم نفذ صبره ولم يعد يحتمل الانتظار، فلطالما تعب للوصول إلى هذا اليوم، اليوم الذي يمتلك فيه رهام، الإنسانة التي تخلت عنه بعد كل المعاملة الجميلة التي عاملها بها والإخلاص الذي أكنه لها، فلا أحد يستطيع التكهن بنوع المعاملة التي ستلقاها بين جدران ذلك البيت، ولا بمستقبل هذه العلاقة، ومن الطبيعي أن نتوقع الأسوأ من كليهما، فلا أحد منهما سينسى ما عامله الآخر به ذات يوم . وصل العريسان بعد دقائق قليلة لبيتهما الجديد، توقفت معه أنفاس رهام وظهر الارتباك على ملامحها، حتى اصفر وجهها فتمنت لو توفيت قبل أن يكتب عليها هذا المصير، فهي أشد الناس علما بأن سليم هددها يوما، وأنه يستطيع تطبيق تهديده لرد الاعتبار لنفسه، لم تجد بدا من النزول من السيارة ودخول بيت سليم، كان بيتا جميلا تتمناه كل عروس ما عداها.. أرضية بيضاء ومرايا في مدخل البيت.. غرفة معيشة في بساطتها حسن القصور.. مائدة طعام فخمة بالقرب من مطبخ زهري.. وحمام منحوت يتوسطه مغطس أبيض فخم.. توقفت برهة أمام باب أبيض موصد، علمت علم اليقين أنه غرفة نومهما، فترددت في فتحها بل تراجعت وعادت أدراجها للوراء،

لكن يدا قاسية منعتها من الهروب، بل وجهتها بقوة للدخول، فقد فتح سليم الباب ودفع رهام للدخول بعنف، قائلا باستهزاء :

- " هذه غرفتك الجديدة حبيبتي ".

نزلت الجملة على قلب رهام كصخرة جلمود حطها السيل من عل، أحست أن نهايتها اقتربت بعدما قبلت هذا الزواج الماكر، لم يكن ليصدقها أحد لو أنها أخبرتهم أن هدف سليم لم يكن طيبا بل هو مجرد رد اعتبار لا غير، وتذكرت مباشرة ما تبادر لها من صوت كمال يوم عقد القران، وشدت أزرها وعزمت على الصمود. فزواجها بسليم في هذه الظروف سيحميها ويحمي جنينها، بل قد ينسب لسليم أمام كل الناس حتى لو لم يكتمل هذا الزواج مما سيترك لها مجالا لتبقيه على قيد الحياة، فلا أحد كان ليرحمها لو ألغت زواجها أمس، بل كانت لتصبح حديث الجميع، وساعتها ستدمر كلما ضحت من أجله، وقد يتعرض أحدهم لمكروه هي في غنى عنه.

لا الكتابة قادرة على وصف ما أعيشه، ولا البوح يصف عظمة مأساتي، أنا اليوم في بيت مزخرف لم أختر فيه شيئا، بل في بيت شخص لا أكن له شعورا سوى الاشمئزاز، بدت نيته السيئة التي لا يعلمها سواي منذ وطئت قدماي أرضيته، فقد أجبرني على اكتشاف البيت ركنا ركنا، وأجبرني على دخول غرفة نوم أعتبرها قبرا، ولا أحد يعلم ما ينتظرني هنا في القادم من الأيام.. سحبت يدي من قبضته بقوة، وقابلته بنظرات حادة تخبره بلا تمويه أني لن أكون ضحية لمكره مهما حاول، وأني لن أخضع لسلطته مهما كان قاسيا معي .

توجهت بعدها مباشرة إلى الأريكة في بيت المعيشة، فوضعت حقيبتي اليدوية بجانبي وجلست جلسة المتيقنة من نفسها، أدفع بقوة كل شعور بالخوف قد يبدو على ملامحي فيعطي شحنة ثقة زائدة لسليم. بل تمكنت من صد إحساس الغرابة الذي اعتراني منذ دخولي هذا القبر الضيق، وحاولت التعامل بكل أريحية ما دام القبر قبري، لم يستطع سليم تحليل ما يقع أمامه من تغيير، فحاول هو الآخر تجاوز ما يحصل من تشنج بيننا، فلم يجد

سوى أن يفتح معي باب الحوار بأي وسيلة حتى لو كانت تافهة، فسألني بابتسامة باردة مستعارة هل أستطيع أن أطهو طعام الغذاء أم يتكلف هو بالأمر. لم أوجه له خطابا كما كان ينتظر مني، بل حملت ما تبقى لي من قوة فتوجهت صوب المطبخ لأطبخ له سم الحنظل لعلنا نموت معا فنرتاح.. راودتني الكثير من الأفكار الشريرة أنا أحمل السكين بيدي ، لا أعرف لما أصبحت بهذا الشكل ولا متى أصبحت عليه، لكن رؤيتي لوجه سليم تبعث في رغبة كبيرة في الثورة والقتل أحيانا، بل التسلط والانتقام أيضا.. طبخت بعض الطعام الذي لا يحرك شهية في الإنسان، لكن سليم تعمد أن يأكله بشراهة كبيرة، كأنه يتذوق اللحم لأول مرة، يضع اللقمة في فمه وعيناه المبتسمتان بمكر تنظران لي بثبات كبير، كأنه يوجه لي رسالة مفادها إني انتصرت.

مر اليوم كله وأنا أدعي أني نائمة في الفراش من شدة التعب، لكن عقلي كله في يقظة تامة، أفكر في سبيل للوصول إلى الاختبار أو الطبيب، لكن الأمر أصبح شبه مستحيل وأنا مسجونة في هذا القفص.. فقررت حينها أن أنتظر يومين فأدعي فيهما أني أريد رؤية أمي لأذهب عند الطبيب للكشف عن حملي . لم يعد يعتريني شك في كوني حامل، لا أنكر أني لم أرد يوما أن أحصل على طفل بهذا الشكل، فالله يعلم أننا لم نعصه استخفافا بمراقبته ولا استهانة بعقابه، ولكن غرّنا عفوه فطمعنا في رحمته، وها نحن على بابه نلتمس العفو والرحمة والغفران، بل لعل حملي هذا في ظاهره عقاب وفي باطنه ثوبة ومغفرة، قد قرر بها أن يترك رابطا قويا بيني وبين من أحبه ضدا في من فرقونا، حتى لو لم نجتمع يوما، فجزء منه يكبر في أحشائي وسينمو أمام عيناي .. فلم يكن أمامي إلا أن أنفذ الخطة التي ذكرت، فنمت على أمل أن تنتهي هذه الليلة بسلام دون أن أرى فيها وجه سليم مجددا، وأنا في الآن ذاته أكرر ما كان يلقيه كمال على مسمعي من جمل حول الحب .

- " لا تبحثي عن الحب في كلمات مزيفة يا رهام.. بل ابحثي عنه في قلوب صادقة.. إن وعدتك صانتك.. ولا تندمي على حبك لشخص لم تري منه عيبا حتى لو لم يكن من نصيبك.. فالتاريخ لم يخلد قصص الحب المكتملة بقدر ما خلد غير المكتملة.."

أمضيت الليل رفقة كمال كالعادة، كان حضوره في أحلامي كل ليلة بمثابة متنفس لي بعد يوم عصيب، يختلف حضوره بين الغاضب الساخط تارة وبين المحب العطوف تارات أخرى، كأنه لقاء لروحين في السماء بعيدا عن دنس الأرض، لكن حلمي هذه المرة اختلف عن باقي الأحلام معه، فقد أمسك كمال بيدي دون أن ينبس بكلمة، ورفع طفلة صغيرة على كتفيه ترتدي تنورة بيضاء يشع منها النور، أكاد أرى ملامح وجهها البريء، لا أشك أنها تشبه كمال في كل شيء، شعره الأسود وبشرته الصافية البيضاء وبراءة ملامحه.. كنا نتجه صوب نور ساطع بعيد، كأنه ثقب مضيء وسط كهف مظلم، ما إن تقدمنا بضع خطوات حتى اختلف أديم الأرض من عشب أخضر إلى حطب أسود تداعبه ثعابين وحشرات سود أرعبت قلبي وأجزعته، لكن ما إن حاولت التراجع خوفا حتى وجدت يد كمال تتمسك بي بقوة لتعيدني إلى مساره الذي يخطو فيه بثبات ودون خوف، حاولت الصمود رغم ما أعانيه من خوف من الثعابين والحشرات لأني أعرف أن وجود كمال بجانبي كفيل بحمايتي من كل مكروه، إلى أن تعثرت في حفرة كبيرة تشبه الهاوية سقطت فيها ولم أصل قعرها لأستيقظ وأنا أصرخ بكل قوتي فأجد سليم بجانبي يتساءل عن سبب صراخي بهذا الشكل . استوعبت بعد ثوان أني كنت في حلم جميل انقلب لكابوس في آخر لحظة، لكن شعورا غريبا كان يؤكد لي أن ذلك الحلم سيتحقق لا شك، وما أنزل الطمأنينة في قلبي أن نرجس ظلت بين يدي أبيها بعد سقوطي في الحفرة.. استجمعت قوتي وسلبت من سليم دور الزوج الذي لعبه هذا الصباح، وسرعان ما عاد هو الآخر لواقعه، لكنه ظل يتفقد حالي بين اللحظة والأخرى، بل لا شك أنه لاحظ شحوب وجهي وضعف جسدي وغثياني بعد تناول بعض حبات الزيتون الأسود لأزيل بها مرارة الصباح.

الشك، والانتظار، والسجن، والقبول بأمر لم تختره أصعب ما يمكن أن يتحمله قلب فتاة لم تعرف من الحياة سوى ما لذ وطاب، فرهام لم تفكر يوما أن حياتها قد تنقلب رأسا على عقب، بل لم تتخيل أن زواجها الذي كانت تحلم به مقر سعادة وسرور لها قد ينقلب أكبر مأساة في حياتها، وأن حملها قد يكون سرا تحاول إخفاءه بدل الافتخار به بين أقاربها .

يجب دائما أن نضع نصب أعيننا أن قطار العمر يمر بسرعة، يطوف بنا في مدارات الحياة، ويسلك بنا دروبا منوعة، في خضم ذلك كله نسير ونمضي ونتشبث بالأحلام رغم صعوبة المسالك، وقد ترمي بنا الظروف أحيانا وسط بحر لجي من المتاعب كما يمكن أن تنقلنا أحايين إلى شواطئ آمنة، لكن لابد بعد ما نخوضه من هزات أن تتولد لدينا أذرعا لنحمي بها أنفسنا من الموجات القادمة، فرغم ما تتركه المصائب والابتلاءات في أنفسنا تظل الحياة دونها بلا بصمة أو بريق، ولباتت باهتة بلا قيمة تذكر في أرذل العمر، هذا ما تقترب رهام للوصول إليه بعدما ستقرر مواجهة الخطوب التي تعترضها، والصمود أمامها والتفكير في حل لها بدل الهروب والبكاء وراءها . فالخطأ الذي تلام عليه في كل ما حدث هو عدم مواجهتها لكمال بعد قرار انسحابها من حياته، فكرت في ما فيه صالح مادي للكل ونسيت أنها كسرت قلبا لطالما أحبها، ولربما حملها هذا فرصة أخرى لتعيد توجيه بوصلتها واستعادة ذلك القلب من جديد. كانت تظن أنها تستطيع إخفاء حملها لمدة طويلة بعدما تتأكد من صحته رغم أن كل المؤشرات تؤكد وجوده، لكن دهاء سليم ومكره كانا أكبر من ذلك، فطلب رؤية رهام لأمها دون مرافقته لها زرعت الشك في قلبه، بل أيقظته فحسب، فلطالما كان سليم لا يثق بتصرفات رهام منذ أن تخلت عنه . لم يستطع رفض طلبها، لكنه قرر مراقبتها عن كثب، فما إن دخلت للكشف وتمددت أمام آلة الفحص حتى وجدت سليم يدفع الباب ليدخل عليهما متقمصا دور الزوج .

- " خير يا دكتورة . مما تشكو ؟ "

لم تجد رهام فرصة لردع الدكتورة حتى وجدتها تبارك له الجنين وتخبره أنه في شهره الأول، تسمرت رهام في مكانها وهي تضع يدها على فمها من هول ما سمعته، اختلطت عليها كل المشاعر، برود في أطرافها السفلى وحمى في جزئها العلوي، لم تعد تعرف أهي أسعد الناس بجنينها أم أتعسهم بمصيبتها، نسيت أن مصيبتها ليست في الحمل بل فيمن يقف أمامها الآن ممتقع الوجه، متصلب الملامح، منفوخ العروق كأنه في حلبة مصارعة حرة،

حاول سليم التخلص من الغرابة التي اعترت الطبيبة بعد رؤية حال الزوجين، فادعى أنه مصدوم لأنه أول حمل لهما، وبادر بإمساك يد زوجته ليساعدها على النهوض .

تمكن الاثنان من تمثيل دور الزوجين رغم أنه لا يخفى على عاقل أنهما عدوين، فهمّا بالانصراف بهدوء تام إلى أن وصلا إلى السيارة، جلس سليم في مقعد السياقة دون أن يحرك ساكنا ولا أن ينظر باتجاه رهام، كأنه يخاف أن يصدر منه تصرف لا تحمد عقباه، فهو رغم كل ما حدث بينهما ما يزال يشعر ببعض الحب الممتزج بالغضب نحوها، نطق بهدوء وخنوع تامين، وكأنه يستسلم في هذه الحرب بعدما هزمته رهام بشيء لم يكن يتوقعه .

- "لما تزوجت بي ؟"

هكذا خرج من صمته المخيف، لم تتوقع هي الأخرى أنها ستنكشف بهذه السرعة، بل كانت تظن أنها ستطلب الطلاق قبل أن يكتشف أحد حملها، فليست هي من تنسب حملا لغير صاحبه، ونسبا لغير منسوبه، بل كانت موافقتها على هذا الزواج لإرضاء نزوة أمها رغم ما في الأمر من أنانية، ومحاولة الحفاظ على جنينها من محاولات الإجهاض التي كانت ستتخذها أمها لو علمت بمسألة حملها.. فضلت رهام الصمت بدل الإجابة عن سؤال سليم، فلا مبرر يشفع لها على صنيعها رغم أنها لم تكن تعلم ما تقدم عليه، لكن يبدو أن سليم قد نفذ صبره وهو ينتظر الإجابة على ما سألها عنه، فلم يكن بوسعه سوى أن يفرغ غضبه في مقود السيارة الذي سلط عليه مختلف اللّكمات التي لو جاءت في وجهها لكانت طريحة الفراش . ظل الصمت سائدا طوال مشوار الطريق، ولم يستطع أحد منهما أن ينطق بكلمة، واحتفظ كل منهما بما يدور بخلده، بل افترقا كل في غرفته بعد وصولهما، فلا سليم يستوعب ما سمعته أذناه، ولا رهام تجاوزت صدمة حملها.

كل الأفكار تتلاعب بعقلها.. تشك في كون كمال قد بدأ حياة جديدة رفقة إحداهن، بل إن حدسها يكاد يؤكد لها الأمر، وكيف لا تشعر به وهي تشعر بجريان دمه بين العروق..

أو أنه قد يتنكر لابنه أو ابنته في حالة شك أنهما ليسا من صلبه بعد أن يعميه الغضب عن إدراك الحقيقة.. كما تتساءل عن الطريقة التي ستطلب بها الطلاق للبحث عنه مجددا رغم كل تلك الشكوك.. أضحت الساعات طويلة في كل يوم يمر عليها على نفس الحال، تنتظر الساعة التي يفرج عليها فيها من هنا لتهرع عند من تحبه مجددا، وما كان يخفف وطأة تلك الأيام وضغطها سوى غياب سليم لعمله، فمنذ أسبوع وهو يقاطعها ويتحاشى النظر في وجهها، كأن كل ما خطط له قد تم إلغاؤه، أو لربما كان ينوي استعادة حبها من جديد، لكن حملها قد أفسد كل ما كان يخطط له .

فالحب هو ذلك الشعور الذي لا إكراه فيه ولا سلطة لأحد عليه، لا يستطيع أحد إجبارنا على أن نحبه، كما لا يستطيع إجبارنا على أن نكرهه، فالكثير من الناس يحبون أشخاصا أذوهم كثيرا، وبالرغم من ذلك يخترعون لهم آلاف الأعذار والأسباب فلا يتوقفون عن حبهم بل يزيدون فوق درجته درجات قد تصل حد الجنون، كما أن هناك آخرين يسلكون مختلف الطرق لجعل من يحبونهم يبادلونهم نفس الشعور فلا يستطيعون، وهناك من يسلك مسالك عدة لإبعاد ذلك الشعور عنه فلا يفلح، لأن الحب بكل بساطة بذرة يزرعها الخالق فينا دون أن نعي زمن زرعها ولا الثمرة التي سنجني منها بعد زرعها، هكذا الحال بين سليم ورهام وكمال، فالأول يحاول أن ينتزع حبه بالإكراه، والثاني يحاول التخلص منه فلا يستطيع، أما الثالث فيحب رغم كل الأذى الذي لحقه، تبقى لانتهاء العطلة ثلاثة أسابيع فقط، وسليم لم يتخذ قرارا بعد، لم أعد أعرف فيما يفكر، ولا كيف سيتعامل مع الوضع، فأنا أنتظر اللحظة التي سيخبرني فيها أني طالق، لأذهب مباشرة للبحث عن كمال، أعلم أنه لن يسامحني على خيانتي للعهود التي قدمتها، لكنه في الآن ذاته لن يتخلى عن ابنه أو ابنته، فلم أعهد فيه التهرب من المسؤولية، بل لطالما كان مسؤولا عني في أبسط الأمور وأكبرها .

قطع تفكيري رنين الهاتف الثابت، ترددت في فتح الخط على المتصل، قد يكون الاتصال من سليم وأنا لا أستطيع التحدث معه ولو بكلمة واحدة، كما تذكرت أن الاتصال

قد يكون من بيتنا، فأجبرت على الرد تفاديا لأي مفاجأة، فعلا لقد كان الاتصال من أمي، تخبرني فيه أنها قادمة غدا رفقة إخوتي وخالتي ليطمئنّ على حالي، فقد مر أسبوعان على آخر مرة تواصلت معهم فيها، كنت أتفادى فيهما الاتصال بهم أو التحدث معهم في وسائل التواصل الأخرى، لا أنكر أني ما زلت غاضبة منهم، لكنهم أهلي ومن واجبي احترامهم.. رحبت بالكل وادعيت أن سليم أيضا سعيد بقدومهم، يبدو أني سأكون مجبرة على تمثيل دور الزوجة السعيدة وإتقانه أمامهم.. لم أجد طريقة أخبر بها سليم في الصباح الموالي أن أهلي قادمون لتناول وجبة الغذاء في بيته، فعزمت على أن أتحدث معه مباشرة دون فزع أو خوف، بل بكل جرأة فكل ما أنا فيه الآن هو سبب من أسبابه، اغتنمت فرصة خروجه من غرفته ليرتدي حذاءه ويحمل متاعه للمغادرة، فأخبرته بصوت قوي أجش:

- " لا تتأخر على الغذاء ، لدينا ضيوف"

رمقني بنظرة حادة كأنه يخبرني أنه غير مجبور على حضور هذه التفاهة ولا المشاركة في هذه التمثيلية، فأردفت :

- "أنت مجبر على الحضور ما دمت قد تزوجت بي غصبا "

استجمع كل من قوته وغضبه وثأره موجها إياهم لي في كف سال معه الدم من أنفي، حتى كاد أن يغمى علي من شدته، لم أظهر تأثرا أو رغبة في البكاء، ولم ألامس خدي بيدي رغم الألم الذي أحسست به، بل حافظت على رباطة جأشي وأكملت القول :

- " الاختلاف بينكما كبير، لذلك هو من استحق أن يحصل على قلبي وروحي وجسدي، وها هو الآن يحصل على مولود مني ... "

لم يترك لي مجالا لإكمال ما أريد أن أخبره به، فهم بالمغادرة مسرعا كي لا يسمع ما يعجز عن صده من أفكاره أيضا، فهو لا شك كان دائما ما يتساءل عن سبب تركي له واستبداله بشخص آخر لا يرقى لمستوى عيشه حتى، لم يكن ليعلم أن الأمر تجاوز المال والطبقات الاجتماعية والوعود الكبيرة لكسب القلوب الطامعة، فكمال إنسان قبل كل شيء يولي

اهتمامه لما هو إنساني وعاطفي أكثر من الظهور والتباهي.. وهذا ما كان يفتقر إليه سليم، ولربما طرق الحب تختلف أيضا وأنا أحببت طريقة كمال وكفى .

حاولت إخفاء أثر الصفعة المؤلمة ببعض مساحيق التجميل كي أتفادى ثرثرة خالاتي وتألم أمي مما تعلم أني أعانيه لا محال، وتوجهت صوب المطبخ لأجهز مائدة الطعام بما لذ وطاب، تبدو حالة المطبخ جافة كأن البيت خال من أهله، فلا أحد منا كان يطبخ فيه، فسليم يأتي من الخارج حاملا الطعام الجاهز لأنه يعلم أني لن أطبخ له حتى لو مت جوعا، تناسيت أني امرأة تحمل بداخلها روحا ثانية، وتحتاج هذه الروح أيضا لغذاء ورعاية، فكل ما أعانيه من تعب وأعصاب وتجويع للنفس يصل الجنين ويؤذيه أيضا.

طبخت اللحم وجهزت من المقبلات أشهاها ومن العصائر ألذها، ثم نظفت أركان البيت والغرف وعطرت المداخل بروائح تبعث القليل من الراحة في بيت تشع منه كل طاقات الكون سلبية، ارتديت قميصا بسيطا وفردت خصلات شعري الضعيفة وجلست أنتظر قدوم الضيوف الذين وصلوا بعد دقائق معدودة من انتهاء التحضير لهم، كانت اللحظة التي أفتح فيها باب المنزل على أهلي أصعب من يوم عقد قراني بسليم، شعرت بغرابة كبيرة بيني وبينهم، كأن الفاصل بين الابنة وأهلها يمتد يوما بعد يوم، لكني حاولت الحفاظ على أنفاسي والتظاهر بأن كل شيء كما تمنوه لي، فاستعرت ابتسامة جديدة وأحييت النشاط في جسدي وعبرت عن فرحي بقدومهم مباشرة بعد فتح الباب .

عانقت الكل مرحبة بهم وسعيدة بقدومهم، أحاول التخلص من نظراتهم المتفحصة والفضولية، فالكل يحاول معرفة ما إذا كنت بخير، استطعت أن أخدع الكل لكني فشلت في خداع أمي، كيف لي أن أخدع من حملت بي تسعة أشهر وربتني حتى استوى عودي، فهي تعلم متى أكون سعيدة بالضبط ومتى أدعي ذلك، فادعت هي الأخرى أنها تصدقني، وباشرت في السؤال عن حالي مع سليم، وكيف يعاملني ولما لم أتمكن من الذهاب لزيارتهم، كلها أسئلة كنت قد جهزت لها جوابا، لكن ما لا أستطيع ضمانه هو الطريقة التي سيتعامل بها سليم بعد حضوره .

سمعت باب المنزل يفتح فعلم الكل أن سليما قد عاد من العمل، تبدلت ملامحي حتى كاد يغمى علي، ولاحظ الكل أني لست بخير، لكن حركة سليم المفاجئة معي قلبت الموازين في لحظة واحدة، فقد ارتمى من ورائي كالطفل على كتفي يعبر عن تعبه واشتياقه لي، ويلاطفني تعبيرا عن حبه وصعوبة ابتعاده عني، راق لأمي الأمر واختفت من على وجهها أمارات الشك والحيرة. فجلس بجانبي على مائدة الطعام يناولني الأكل بيده ،وما كان لي سوى أن أشاركه ما يقوم به لأتخلص من البقية في أقرب وقت، رغم أني كنت أحس أن لمساته جمرة من نار ستحرق جلدي فينبعث منه الرماد، والطعام من يده سم يهلك ما بأحشائي. مر كل شيء على ما يرام ولسليم فضل في ذلك رغم أني لم أفهم ما وراء تصرفه المبالغ ذاك، لكني تجاوزت ما كنت أخشاه بسببه، فقد حاول الدفاع عني بأسلوبه الفكاهي المعتاد بعدما تساءلت أمي مرارا عن سبب شحوبي المفرط.

كان من الضروري أن أحصل على جواب شاف من سليم بعدما حدث اليوم، بل كان من الضروري أن أخبره أني أعزم على طلب الطلاق قبل أن تبدأ بطني في البروز. استجمعت قواي كلها واتجهت صوب أريكته المفضلة، حيث يمضي جل وقته في البيت أمام التلفاز.. توقفت لبرهة كأن أمرا ما يمنعني من التسرع، لكن رغبتي الملحة في الهروب من هذا القبر والبحث عن الرجل الذي أحببته وتخليت عنه مجبرة تدفعني للتحدث معه بشكل عاجل.

- " سليم . طلقني "

ضحك بصوت عال ضحكة استهزاء اهتزت معها نبضات قلبي المضطربة، فأنا لا أخاف من سليم لكني أعرف أني أسيرة بين يديه ولا أحد يستطيع فك أسري سواه، فبقدر ما هو شخص طيب حنون بقدر ما هو عصبي عنيد لا يرضى الخسارة وهذا ما كنت أمقته في شخصيته، وأعرف الآن بلا شك أو ريبة أن عناده هو أول عائق سأواجه، لم يوجه لي نظراته بعدما انتهى من ضحكته المقيتة تلك، بل ظلت عيناه معلقتان بالتلفاز واكتفى بكلمة واحدة فقط .

- "لا تحلمي بالأمر حبيبتي."

أيقظت الجملة في نفسي بركانا عاصفا يكاد يحترق بناره كل من اقترب مني أو لامس جزء من جسدي، وأصبحت أنفاسي ساخنة تحرق شفاهي كلما تنفست، ويداي ترتجفان كأنهما كانا وسط كومة ثلج باردة .. فأجبت في حنق وبغض كبيرين دون أن أزيح فكاي عن بعضهما البعض فاكتفت شفاهي بالنطق:

- " سأخرج من البيت ولن تستطيع منعي . "

توجهت لغرفة النوم بسرعة بعدما ألقيت عليه جملتي تلك، حملت حقيبتي الصغيرة وبعض النقود لأستطيع أخذ سيارة أجرة، خرجت من غرفتي في اتجاه الباب لأجد سليما يتكئ بيده اليمنى على جداره وينظر إلى الأرض يسند قدما على أخرى في حالة اعتراض على خروجي من المنزل، طلبت منه الابتعاد من طريقي لأتمكن من الخروج، لكنه وفّر مجهوده ليمسك بدراعي بكل ما يملكه من قوة حتى أحسست بأن الدم سيتطاير منها لشدة الألم . استطاع باستقوائه علي أن يعيدني خطوات للوراء، ليخبرني أنه غير مستعد للتخلي عن هذا الجنين وأنه لن يسمح لأحد بالتحدث عنه بسوء حتى لو كلفه الأمر سجني، وإذا ما حاولت الخروج من المنزل وإخبار أحد بما يحدث وعن حقيقة حملي، سيخبر العالم أننا عائلة محتالة حاولت إلصاق حملها اللقيط بإنسان محترم، وأن أفكر في حال أهلي وخصوصا أمي التي تظن أنها قامت بالصواب عند تزويجها لابنتها بشخص وثقت به زوجا صالحا لابنتها .

أغلق الباب بمفتاحه وهم بالانصراف دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات وراءه، أي ابن يتحدث عنه؟ أيريد أن ينسب جنيني لاسمه فقط من أجل صورته أمام الناس؟ من أي طينة خلق هذا الرجل؟ خارت قواي فسقطت على الأرض جالسة تملأ الدموع مساحات وجهي، كيف لي أن أتخلص من هذا المأزق يا إلهي؟ وكيف لي أن أخبر كمال بحملي ليخلصني بنفسه؟ لا شك أنه أوشك على نسياني، وقد يكون في أحضان امرأة أخرى، لا

حق لي في لومه، فأنا التي نقضت عهدها بعدما تشبث بها رغم كل المعيقات، وأنا التي استسلمت لأهلها بدل الدفاع عمن أحبته، وأنا التي حظرته بدل مواجهته وطلب المساندة منه .. وأنا التي تعجز الآن حتى على الحصول على رقمه لإخباره بما يحدث..

تذبذب سليم في معاملاته مع رهام دليل واضح على أنه لم يضع خطة محكمة للانتقام منها، بل كان يظن أنه بإجبارها على الزواج وترك مسافة لها لتتقبل الوضع كفيل ليجعلها تسترجع حبها السابق له، بل يبدو أنه كان مراهنا على الزمن فحسب وهذا كفيل برد الاعتبار لنفسه، لكن مسألة حملها قلبت موازين ما كان ينتظره .

فليس من السهل على إنسان أن يفرض الحب على شخص آخر لكن من الصعب أيضا أن تتقبل أن ذلك الشخص يحب شخصا غيرك، وما إن يتقبل سليم أن قلب رهام ملك لرجل آخر ولا دخل له في ذلك سيتمكن من تحرير نفسه قبل تحريرها من هذا العذاب، فلا هو يستطيع أن يحظى بحياة زوجية طبيعية، ولا هي ستتمكن من أن تبادله الحب بدل الكره لما تراه منه من تعنيف وما تحمله من حب لكمال. فقد فضل سليم أن ينسب الطفل لاسمه بدلا من التنازل عن رهام لشخص آخر، وفضل امتلاك قلب وابن ليسا ملكا له، فضلا عن أن تصرفه هذا خطة للحفاظ على ماء وجهه أمام الآخرين، فخروج رهام من المنزل وطلاقها وهي حامل كفيل بهدم سمعة أهل رهام وجعل سليم وعائلته محط سخرية أمام الجميع.

لم يعد أمام المسكينة حل من حلول الأرض فتدرعت لله تسأله حلول السماء، فقد استخارته مرات عدة ليجمعها بكمال، لكن كانت علاماته في كل مرة تؤكد أن أمر اجتماعهما مستحيل، لكنها لم تقنط يوما من رحمة الله، فعنوان الله الأمل لدى سجدت مجددا تبكي شاكية حالها لله وحده، تخبره بما يؤلمها فلا أحد سواه قادر على الإفراج عن كربتها، ولا أحد سواه قادر عن مسامحتها على أخطائها دون تردد .

حملت جسدي المبعثر وسحبت قدماي المتعبتان والمستسلمتان في اتجاه غرفتي، ألجأ لسجادة صلاتي لأشكو لله ألمي وأطلب العفو منه والمغفرة وأنا كلي يقين أنه سيسمع دعائي وتضرعي :

- " إلهي : أنت أكبر من الحظ .. وأكبر من هذا التعجيز .. وأكبر من هذا التعقيد .. وأكبر من هذه البعثرة ..
- إلهي : اختر لي ولا تخيرني .. ،واكفني من شتات العقل وحيرة النفس .. وارزقني طاقة بها أعيش .. وأتحمل وأرضى وأصبر ..، فعليك توكلت..
- إلهي : مؤمنة بك وبكل ما تكتبه لي في حياتي .. مؤمنة بك وبكل ما سخرته لي .. وأخذته مني .. مؤمنة بك وبأنك ستغفر كل زلاتي وكبائري.. مؤمنة بأنك ستزيل همي وغمي وألمي وجميع وجعي ...

استيقظت صباحا لأجد نفسي مستلقية على السجادة حيث كنت آخر مرة أمس، يبدو أن الله منّ علي بلطفه فغفوت دون عناء أو أرق، تذكرت مباشرة ما حدث أمس مع سليم فخرجت من غرفتي أبحث عنه لعلي أجد تفسيرا لما قاله، لكني وجدت مكانه فارغا ..، لمحت أثناء خروجي من غرفته بجوار سريره ملصقا صغيرا كتب عليه :

- " جهزي حقيبتك سنسافر الليلة "

ما تزال تصرفات هذا الرجل غريبة ولا أجد لها تفسيرا منطقيا، فكلما حاولت فهم ما يريد الوصول إليه وجدته يطبق العكس. يبدو أنه يظن أن بسفرنا هذا سيخفي مسألة حملي المبكر عن الكل، أو لعله يظن أنه سيستطيع إبعادي عن كمال بهذه السهولة، فلو كان النسيان بهذه السهولة لما كتبت كل تلك القصص الخالدة في الحب. اسألوا كل نساء الكون هل استطعن نسيان رجل أهداهن وردة بدون مناسبة .. أو رجل تحسس جبينهن حينما ارتفعت حرارتهن.. أو رجل يقرأ عليهن دواوين الشعر المختلفة.. أو رجل أعد لهن كوب عصير لأنهن لا يشربن الحليب.. أو رجل يخبرهن أنه يحبهن همسا كي لا يسمع الكلمة أحد

غيرهن.. اسألوا كل النساء كيف لا يحبن قارئا يترجمهن في قصص الحب التي يقرأها.. كيف لا يحبن شاعرا يخاطبهن بأشعار المتنبي وعنترة وقيس.. ويملي عليهن تاريخ عشق مي زيادة وجبران، وأمل دنقل مع عبلة..، رجل يلتقيهن كل مساء على ضفاف كتب وأشعار وروايات، رجل خبر كل المشاعر من حب ولهفة وإخلاص... فلا الأشخاص ولا الأمكنة ولا الأزمنة قادرة على إبعاد طيف هذا الرجل عني، وكيف أتخطاه وهو الشيء الوحيد الذي شعرت به بصدق في حياتي.

رميت برسالته أرضا وعدت أدراجي للوراء، فلا شيء يمكنه إجباري على السفر، بل لا أحد له الحق في ذلك. فعدت مباشرة لغرفتي الحزينة حيث أقضي معظم وقتي أحاول خلق شيء يلهيني عن التفكير، فقد أصبحت آلة لا تتوقف عن نسج أفكار وخلق أحداث وتفسير أخرى، فتذكرت أني أستطيع الكتابة، كتابة كل ما أشعر به وما يحدث معي ما دمت لا أملك من يسمعني أو بالأحرى من يفهمني، فالكتابة طبيب نفسي نخبره بكل شيء دون حرج أو كتمان وتغيير في الحقائق، إنه الشيء الذي يمكننا من تذوق الحياة مرتين، مرة عشناها بأجسادنا وأرواحنا وأخرى نكتفي فيها بنقل تلك الأحداث عبر الذاكرة والإحساس داخل سراديب الزمان والمكان، ولعل ذلك الإحساس يكون أكثر قوة حينما نتذكره أثناء الكتابة من الذي نعيشه لحظة الحقيقة سواء أكان ألما أو سرورا. حملت قلما ودفترا صغيرا وصرت أخط عليه كل ما يجتاح فكري من كلمات دون تحديد نوع المكتوب .

" أتألم يا كمال.. أتألم منذ آخر يوم رأيتك فيه.. تلتهمني الرغبة في رؤية وجهك مجددا.. وأشعر كأن بداخلي سكينا حادا يمزق أحشائي في صعود وهبوط.. فقد تمكن مني هذا الحب حد القهر والغلبة. لقد سبق أن أخبرتني أنه سيصعب علي نزعك من قلبي وعقلي يوما، وأن الموت هو الوحيد القادر على إزالة هذا الحب من صدري.. ها أنا ما أزال معلقة بك.. متكئة على جدارك الضبابي بانتظار نزول حصانك السماوي لإنقاذي .. حصان يرفعني وينتشلني من الغصة التي تنخر ما تبقى من روحي وجسدي.. لا أملك من حيلتي سوى انتظار ساعة أراك فيها بجانبي.. تعطف علي وتمسح الدموع من على وجهي.. وتلامس فيها بطني

حيث يوجد الحلم الذي نسجت خيوطه بيدك، وتخرجني من بين جدران تكاد تلتهم ما تبقى لي من رغبة في الحياة.

أخرجني يا كمال من هذه الظلماء المعتمة، إني في سجن أرى أبوابه صدئة لا تقوى على تحريكها فتاة ضعيفة مثلي، لطالما كنت سندا لي فلا تتركني رغم أخطائي يا كمال، فأنا لا أقوى على إكمال ما تبقى لي في هذه الحياة دونك أو مع غيرك. أعرف أنك غاضب مني في مكان ما تلعن الساعة التي أحببتني فيها، تلعن الساعة التي أحببت فيها امرأة تخلت عنك واستعانت برجل آخر غيرك، لكني ما زلت أطمح في غفرانك يوما، ألم تخبرني يوما أن الحب هو أن أعاتبك وتعاتبني على أصغر الأخطاء وأن أسامحك وأن تسامحني على أكبر الأخطاء؟ إذن سامحني على أخطائي واغفر زلاتي كما كنت، كي أغفر لك أيضا عدم البحث عني، فقد انتظرت كل صباح أن أجد رسالة لك عند رغد، انتظرت كل يوم أن تأتي أمي لتخبرني أنك بباب منزلنا تطلب رؤيتي رغما عن الكل، لكنك لم تأت ..

لا أريد أن أسمح لفكرة نسيانك لي أن تحطم ما تبقى لي من أمل، فأنا أعلم أنه من حقك تكوين أسرة مع غيري، وأن امرأة أخرى قد تنسيك ما تجرعته من ألم، وأن حلما جديدا معها سيمحو أثر أحلامك معي، لكني أقسم لك أنها لن تحبك مثلما أحببتك فرحمة بي لا تفعل .

أخبرني يا كمال كيف أعيش مع تفاصيلك المحفورة على صخرة ذاكرتي إن رحلت ومات الأمل.. كيف أزيل ملامحك وشبهك وضحكتك ونظراتك من تفاصيل ابنتك.. وكيف أستيقظ كل صباح وأنا أعلم أنك في مكان ما فتحت عيناك على صورة امرأة غريبة غيري.. لمست غيري.. قبلت غيري.. عانقت غيري.. مازحت غيري.. وأمسكت يدا أخرى غير يدي.. اعلم يا كمال أن زواجي بهذا الرجل لن يتجاوز حدود الورق، بل لن يكون له علي من سلطان، كما لن يكون لغيره، وأقسم لك أن يدا أخرى غير يدك لم ولن تمس هذا الجسد، ولن تطأ أحاسيسها هذه الروح، بل سأظل حبيسة ذكرى واحدة هي ذكراك حتى لو لم نجتمع بعدها، فأنا على يقين أني سأنالك جزاء في الجنة، وأسأل الله الذي لم يشبعني منك

في الدنيا، أن يمن علي بحضن طويل ينزع ألم فراقك الموجع مني عند باب الجنة وندخلها معا فرحين من دون فراق ..."

عجزت الكلمات هي الأخرى أن توصل كل ما تمنيت قوله، لا لشيء سوى لأني لست خبيرة في الكتابة، لكني على الأقل عوضت جانبا في البوح كنت أخص كمال به، لطالما كان الصدر الرحب الذي يسمع كل ما يجول في ذهني من كلام جاد وتافه وأفكار نيرة وأخرى غبية ...

مر اليوم بطوله تجلس فيه رهام على كرسي مقابل للباب تمسك تلك الورقة التي خطتها بيدها، تخيلت رهام عبرها وجود كمال بجانبها، تخبره عما لحقها من ألم بعد رحيله، وتعبر فيها عن الأمل الذي ما تزال تعيش على ضوئه، فلولا الأمل لما تجاوزنا الألم الذي نعيشه، فهما وجهان لعملة واحدة خطت من نفس الأحرف. وظلت على ذلك الحال حتى وصل موعد عودة سليم، أحست بعد دخوله برغبة قاتلة في الهروب، لكنها حاولت الحفاظ على هدوئها رغم أنها تعلم أن الليلة لن تمر بخير، وقد دخل هو الآخر أيضا كعادته دون أن يلقي سلاما، فهو يعلم أيضا أنها لن ترد التحية عليه، بل لن تتحدث معه إذا كان الموضوع خارج باب حصولها على حريتها، فقال دون مقدمات:

- " أين حقيبتك يا رهام ؟"

فضلت أن تحتفظ بإجابتها وتكتفي بالصمت فقط، دون أن تظهر أنها خائفة من ردة فعله، بل قامت من مكانها لتدخل غرفتها تعبيرا عن رفضها بل عدم اهتمامها لما يقوله. فلحق بها سليم مباشرة يستشيط غضبا:

- " سنغادر البلد حتى لو ذرفت دما بدل الدموع "

ظلت تعامله بنفس البرود حتى خرج عن طوعه فأمسك بدراعيها مجبرا إياها أن تخرج ملابسها من الخزانة بكل قوة، حاولت رهام الدفاع عن نفسها لكنها سقطت على الأرض وارتطم رأسها بجوانب السرير الحادة فأغمي عليها مباشرة. فزع سليم بعد سقوط

رهام حتى ارتجفت يداه، فقد كانت جثة هامدة ينزف رأسها دما غزيرا كأنه ضغط أنبوب ماء.. لم يستطع الاقتراب منها ظنا منه أنها قد ماتت، فمسك رأسه بيديه وانحنى على ركبتيه لا يعرف ما يقدمه ولا ما يؤخره، فصار يتحدث معها في رجفة وارتباك كبيرين:

- " لما فعلت بنا هذا يا رهام ؟ فلطالما أحببتك وتمنيتك زوجة طيبة لي، لما تخليت عني؟ لما فضلت شخصا آخر جنيت منه الويلات فقط؟ لما تزوجت بي وأنت تعلمين أنك لن تنسيه؟
- لما لا تسمعين كلامي ولا تطبقين ما أطلبه منك؟ فأنا لا أريد لك سوى الخير، أريد إبعادك عن كل من أذوك، أريد الحصول على حبك من جديد..
- استيقظي أرجوك يا رهام فأنا أعدك أني لن أجبرك مجددا على شيء لا تريدينه، فقط استيقظي. "

حملها بين دراعيه ووضعها في السيارة منطلقا بأعلى سرعة صوب المستشفى، كان متوترا لحد كبير، بل ظل يردد طوال الطريق بشكل هستيري:

- " لن أجبرك على البقاء مجددا، لن أجبرك على البقاء، لن أجبرك "

دخلت رهام غرفة العناية المركزة فقد كانت إصابتها بليغة جدا، نزفت الكثير من الدم وأصيبت في منطقة حساسة من الفص الجداري في الجزء الأسفل من جمجمتها، كان الوضع خطيرا لكونها حاملا في شهرها الثاني فقط، وهي مرحلة ما يزال فيها الجنين حساسا، بل توقع الأطباء أنها قد تدخل في غيبوبة جزئية من شدة الارتطام .ظل سليم يعض أصابعه من الندم، يطلب الله ألا يحدث لها مكروه، وأن تنجو مما حدث لها بسببه، لكن في الآن نفسه تحركه رغبة دفينة تجعله يتمنى موت ذلك الجنين، يجلس في مكانه مفزوعا بما أخبره الأطباء عن حالة رهام، ويفكر في كيفية إخبار أهلها بما حدث. فلا شك أن الوقت قد حان ليعلم الكل أن من ظنوه زوجا آمنا ومناسبا لرهام كان ليكون سببا في موتها، وأنه شخص ازدواجي الشخصية لا أمان معه أثناء غضبه، بل حان الوقت ليعلم الكل حقيقة

زواجهما وحقيقة حمل رهام، ولربما حان الوقت ليستعيد كمال حقه في الاعتناء بابنه أو ابنته بيديه .

لم يجد سليم مهربا من الاتصال بمنزل رهام لإخبارهم بما حدث، دون أن يسرد عليهم تفاصيل الحادث، ودون أن يخبرهم أنه سبب في سقوطها على أطراف السرير الخشبي في الوقت الذي كان يجبرها على السفر معه خارج البلد. دخل الكل رفقة أم رهام وتعالت الأصوات التي تتساءل عن رهام وما حدث لها، وكذا النحيب بعد رؤيتها من وراء زجاج باب غرفة العناية المركزة، ولم أتوقع أن سليما سيتهرب من قول الحقيقة، فقد أخبر الكل أنها كانت تحاول إنزال شيء من الأعلى فسقطت من على الكرسي وارتطم رأسها بالسرير، فهو على علم أن رهام لن تخبر أحدا بالحقيقة بعد استيقاظها .

طال انتظار الأهل لخروج الطبيب من غرفتها لمعرفة حالتها بعد الانتهاء من علاج موضع الارتطام، لم يستدع الأمر عملية جراحية كما أخبرهم، وهذا لا يعني أن الأمر خال من الخطورة، فهو يستدعي الانتظار لمعرفة ما قد تؤول إليه الأمور في ما بعد. خرج من غرفة العناية بعد مرور وقت على دخوله ليخبرهم .

- " يبدو أن الارتطام قد كان قويا، فقد فقدت المريضة الكثير من الدم وتأثرت جمجمتها بجرح غائر قد يؤثر هذا على نسبة استيقاظها وقد تدخل في غيبوبة نتيجة لارتجاج طفيف في المخ، وقد يكون له تأثيرات أخرى في حالة استيقاظها مستقبلا، كما أنه قد يؤثر على إمكانية بقاء جنينها على قيد الحياة . "
- " الجنين ؟ "

طرحت الأم سؤالها في حالة ذهول مما تسمعه، فكيف لرهام أن تحمل بعد أسابيع من زواجها ؟

- " نعم سيدتي، المريضة حامل في.."

قاطعه سليم قبل أن يخبر أم رهام بفترة حملها فتقيم الأرض ولا تقعدها.

- " نعم دكتور نحن نعلم بمسألة حمل رهام نشكرك "

طلبت أم رهام من سليم تفسيرا لما قاله الطبيب فور مغادرته، فقد اعترتها صدمتان، صدمة انبطاح ابنتها في سرير الإنعاش وصدمة حمل قبل أوانه، فطلب منها هو الآخر أن ترافقه بعيدا عن الآخرين وتجلس ليخبرها بتفاصيل ما حدث، فقد حان موعد إعلان الحقيقة كي يبرّئ سليم ذمته أمام الكل، فلطالما كان يهتم بصورته أمام الآخرين قبل كل شيء .سرد كل تفاصيل ما حدث على أم رهام، أخبرها أن رهام قد تزوجت به فقط لتستر حملها المرفوض وتحافظ عليه، وأنها لم تسمح له يوما بأن يمسها ولا حاول هو ذلك، كما أخبرها أنها قد طلبت الطلاق منه مرات عدة، وحاولت مرارا الخروج للبحث عن كمال وإخباره بمسألة حملها فرفض مما زاد حدة الصراع بينهما فصارت تقاومه في كل ما يطلبه منها، لكنه تجاوز في كلامه حقيقة تعنيفها وتهديدها وإجبارها على البقاء معه ومطالبتها بمغادرة البلد ..

أمسكت الأم رأسها من هول ما سمعته، لم تتوقع يوما أن إجبار ابنتها على اختيارات رأتها هي صائبة قد يؤدي بها لفراش الموت، والعيش في مرارة مع رجل تكره وجوده، وحمل تخفيه عن العالم وتكاد تفقده... فدب الندم في روحها لما وصلت له رهام نتيجة تعنت أهلها وتمسكهم بقراراتهم، وفهمت أخيرا أن إجبار الإنسان على شيء لا يريده يدفعه للهلاك فقط، بل قد ينهي حياته أحيانا. إن إجبار شخص على شيء نراه نحن مناسبا لا يعني بالضرورة أنه سينجح فيه حتى لو كان في الحقيقة مناسبا فعلا، مثلا " فالإكراه على الفضيلة كما قال الغزالي لا يصنع الإنسان الفاضل.. كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع المؤمن ..فالحرية هي أساس الفضيلة "، والاختيار وحده هو من يصنع الفرق في الإنسان سواء أصاب فيما اختاره أو أخطأ.

ظل سليم يتردد بين المنزل والعمل والمستشفى، يتفقد وضع رهام بين الفينة والأخرى، لقد تمكن منه الأسى في كل مرة عاد فيها للبيت ولم يجد به رهام، فرغم عدم مشاركتها له تفاصيل حياته، ولا القيام بواجباتها الزوجية، إلا أنها كانت تملأ عليه فراغ

المكان ووحشته، فمجرد وجود طيف شخص نحبه بجانبنا كفيل بتزويدنا بالطاقة لنعيش أياما أخرى في هذه الحياة دون كلّ أو ملل، حتى لو كان وجوده معنا نتيجة حرب وصراعات فقط . عاد يومها لبيته منكسر الخاطر بعدما طال شفاء رهام فقرر دخول غرفتها ليستشعر وجودها معه، حمل قميص نومها فقام يستنشق عطره كمن يحاول تعويض طيف شخص غاب عنه لسنوات، فارتمى على سريرها يلعن الحظ الذي حرمه من مشاركتها له إياه، فرغم كل ما فيه من مساوئ إلا أنه لم يفكر يوما في إجبارها على إعطائه ما يحق له كزوج لها. وبينما كان يتفقد أشياءها الخاصة في الغرفة، ويتحسس أغراضها بيده، وجد ورقة مطوية بجانب وسادتها، لم يكن من الظاهر على الورقة أنها شيء ذو قيمة، وكأنها ورقة كتب عليها رقم هاتف أو غرض نريد تذكره، رمى بالورقة فوق الدرج المجاور للسرير وعاد مغمضا عينيه ليلتقط بعض الصور من ذاكرته عن الزمن الذي جمعه بها من قبل، وصار يلوم نفسه على كل ما قام به من تجاوزات معها، بل رقّ قلبه لها مجددا فعاد يخطط لتركها حرة بعد شفائها، وزادت تلك الرقة بعد أن تذكر مسألة الورقة فأعاده الفضول ليكتشف محتواها، حيث اكتشف أن رهام تقسم على أن زواجها به سيظل حبرا على ورق، وأن قلبها وروحها سيظلان لكمال ولا لأحد سواه. اعتراه ألم كبير بعد ما قرأه.. وظل يقارن بينه وبين ذلك الرجل الذي شغفها حبا علّه يجد السبب الذي جعلها تفضله عليه.. بل كاد يجن في التفكير بالسبب الذي جعلها تكرهه رغم أنه أحبها بصدق.. لكن صدق ما كتبته في تلك الورقة وصدق ما يراه من بريق في عينيها حينما تتحدث عنه دفعاه لاتخاذ قرار تطليقها بعد شفائها مباشرة .

لقد مرت خمسة أيام على رقود رهام في غرفة العناية المركزة دون حراك كأنها كومة جسد لا روح فيها، ممتدة على سرير طبي جامدة بلا حراك، ترتدي سترة بيضاء على جسدها ويلف رأسها ضمادة بيضاء كبيرة، ويخترق أنفها أنبوب طبي وعلى فمها علبة أكسجين.. كما مر ما يقارب الأسبوع على انتظار سليم وأم رهام للحظة التي تستفيق فيها رهام من غيبوبتها يراقبانها من وراء الزجاج فقط. سمح الطبيب لأم رهام بالدخول لغرفة العناية بعد محاولات كثيرة في استعطافه، فبالرغم من كل القسوة التي عاملت بها رهام إلا

أن لا أحد يمكنه إنكار مسألة حبها لها، فالأم تبقى أما، تتوجع، تلد، تسهر، تتألم، تطعم، تتعب، تقسو، تضرب، وتخطئ... لكن حبها لأبنائها وتخوفها عليهم لا حقيقة في الأرض تنكره . اقتربت من ابنتها بحذر كبير مخافة أن تؤلمها بشيء أو أن تمس شيء طبيا يخصها بالخطأ، راقبت لثوان بطنها الصغير بنظرات ذابلة، وما إن وضعت راحتها على يد رهام حتى انهالت عليها دموع الأسى، فشرعت في التحدث معها بصوت خافت دون أن تمسح دموع الندم أو أن تحاول إيقافها:

- " أعلم أنك تسمعين صوتي يا رهام، بل تستطيعين الشعور بي رغم أنك غائبة عن الوعي، فلطالما كنت ابنتي البكر وصديقتي منذ صغرك، والطفلة التي أنجبتها في سن صغيرة وخلقت منها عالمي الخاص، الطفلة التي علقت عليها آمالي كلها، الطفلة التي أحسست من بين أخواتها أني أنتمي إليها وتنتمي إلي... تعلمين كم أحببتك وكم ما زلت أحبك، كما تعلمين أن كل ما قمت به لم يكن أنانية مقصودة مني، بل ظننته حقا لا أحد يستطيع نزعه مني، وقد كان كمال في نظري هو ذلك العائق الذي سينتزع مني ذلك الحق.. لم يكن إجباري لك على الزواج بسليم رغبة في ماله ولا مستواه ولا شيء مما يملكه، بل كنت أظنه السبيل للحفاظ عليك بقربي ما دمت قد قررت الزواج من غيره. لا أنكر أني كنت ما أزال بحاجتك بالقرب مني، ترعين شؤوني وشؤون إخوتك، لكن إصرارك على الزواج به والابتعاد عني أفقداني بوصلة الأم، تلك البوصلة التي تتمتع بها الأمهات في تحديد الصائب من الخاطئ لأبنائهن، لم أكن أعرف أن ما أقوم به فيه ضرر لك كاد أن يفقدني إياك للأبد. استيقظي يا ابنتي ، فأنا أعدك أني لن أتدخل في قراراتك واختياراتك مجددا، بل سأعتني بابنك أو ابنتك مثلما اعتنيت بك في صغرك.. استيقظي يا رهام فالكل يريد طلب السماح منك، استيقظي يا عزيزتي فجنينك في حاجة إليك، استيقظي يا بنيتي وإلا لن أسامح نفسي على ما اقترفته في حقك.. "

طلب الطبيب من الأم مغادرة الغرفة لتستريح المريضة، فما إن عزمت على النهوض من جانب ابنتها حتى أحست بشيء يدغدغ راحة يدها. كفكفت دموعها ليتضح لها بشكل واضح مصدر تلك الحركة فصرخت دون شعور:

- " لقد استجابت يا دكتور، ابنتي مستيقظة، إن رهام مستيقظة "

أخرجتها الممرضة بصعوبة من غرفة العناية ليتفقدا وضع المريضة، يبدو أن رهام استجابت لنداء أمها وبدأت تستعيد وعيها من جديد، وأن رغبتها في إنجاب مولودها أكبر مما تعرضت له من صدمات. فتحت عيناها بصعوبة تنظر لما يدور حولها من أمور غير مألوفة من طبيب، ممرضات، أجهزة، وأنابيب.. نظراتها باردة متعبة.. عاجزة عن البحث عن جواب.. بل عاجزة حتى عن الرد على أسئلة الطبيب :

- " أترين أصابع يدي يا رهام ؟ كم عددها ؟ "
- " أتذكرين ما حدث ولما أنت هنا يا رهام ؟ "

أسئلة لم تستطع رهام الإجابة عليها إلا بتحريك عينيها أو رأسها بعلامة النفي، وكأن بجسدها شلل تام، أو قد أصابه ضمور بعد تسطحه لأيام دون حراك.. لم يجد الطبيب حلا سوى التأكد من أن جسمها لم يصب بشلل وهذا من بين احتمالات عدة قد تصيبها بعد أن استعادت وعيها من الغيبوبة، فقام بوخزها برأس إبرة في بعض أطرافها الجامدة، لم تبدي رهام أي تأثر في المرة الأولى، لكن سرعان ما عاد الدم البارد ساخنا يتدفق من جديد في أطرافها الباردة كلما حاول الطبيب تحريكها، فصارت تململ جسدها كلما أحست بوخز الإبرة فيه بحركة يائسة مرهقة. تمنى لها الطبيب الشفاء وخرج من الغرفة ليطمئن البقية عن حال ابنتهم، فأخبر الكل أن رهام بخير تحتاج بعض الراحة لتعود لحياتها السابقة، وأن جنينها ما يزال في صحة جيدة رغم ضعف صحة أمه، وقد تظل في العناية يومين أو أقل للتأكد من أنها لن تصاب بمضاعفات على المدى البعيد، وأن حق الزيارة قد أتيح لهم بعد استيقاظها لكن بشكل منظم .

دخل سليم وباقي أفراد العائلة بهدوء تام لغرفة العناية بعد ساعة من استيقاظ رهام لتفقد حالها والاطمئنان عليها.. وألقى الكل تحيته بهدوء مع إظهار ابتسامة تنم عن سعادة بعودتها لأسرتها سالمة، كما يتفقد كل من زاويته وجهها ونظراتها بعد رؤية أهلها من جديد. تعاملت رهام بحذر مع الكل منذ دخولهم عليها بل لاحظ الكل أن نظرتها توحي بالغرابة، كمن يستغرب من وجود شخص يهتم به بينما لا صلة تربطه به، فهم على علم أنها ما تزال تحت تأثير الغيبوبة، لكن مسألة اختطاف يدها من يد أمها بعد أن حاولت إمساكها زرعت الشك في أنفسهم . حاول سليم التأكد بدوره من صحة رهام ومدى وعيها بالمحيطين بها، فقد شك أن تصرفها ذلك مع أمها وراءه سبب مهم، فطلب منها أن تجيب عن سؤاله بتحريك رأسها إيجابا أو سلبا دون أن تقوم بأي مجهود أكبر:

- " أتعرفين أين أنت ؟ "

حركت رهام رأسها إيجابا فهي تعلم أنها ترقد بالمستشفى بعدما رأت الأدوات الطبية والممرضات من حولها، لكنه أضاف أيضا :

- " أتذكرين اسمك ؟ "

تأخرت في الرد عن سؤال سليم هذه المرة وكأنها تبحث عن شيء عالق تعرفه وتكاد تفقده، لكنها تمكنت من القبض عليه في آخر لحظة فأجابت بالإيجاب. سعد سليم بإجابة رهام وتنفس الكل الصعداء بعد أن تأكدوا أن رهام بخير لكن سليم رأى أن عليه التأكد أكثر فسألها مجددا:

- " أتعرفين من أكون يا رهام ؟ "

يبدو كل شيء ضبابيا عندما فتحت عيني، وكأن بها غشاء شفافا يحجب عني قسوة الأضواء والألوان، وتكاد الأصوات الخافتة تخترق شبكة سمعي لتصل لبؤرة الاستيعاب، ولا قدرة لي على تحريك لساني وكأن أوتار حلقي قد تمزقت.. أعرف أني داخل غرفة طبية بمستشفى، وأدري أن من حولي جاؤوا لزيارتي بعد مغادرة الطبيب،

لكني أجد صعوبة في استعادة الأجوبة عن كل سؤال طرح علي.. من أنت؟ يبدو وجهك مألوفا، لكني لا أتذكرك، بل لا أعرف نوع الصلة التي تربطني بك، قد تكون أخي الأكبر، أو قد تكون صديقا لي من الجامعة، بل قد تكون زوجا لإحدى الفتيات الواقفات بجانبي.. أجبت بعد تردد كبير وصعوبة في النطق:

- " من أنت ؟ "

أنستهم فرحة نطقي أني لم أتعرف على الشخص الواقف أمامي، بل قفز الكل بفرح يتعانقون لأني ما زلت قادرة على التكلم، يبدو أن الطبيب قد أخبرهم أني قد أصيب بالخرس أيضا.. لكن ملامح الرجل الذي سألني عن نفسه تغيرت، بل ظلت عيناه مغمضتان لثوان كأنه يحاول استيعاب ما يحدث، أو يحاول الحصول على تفسير لما قلته. فطلب بصوت زاجر من الكل أن يصمتوا ليكرر سؤالا آخر وهو يشير إلى المرأة التي تقف مستغربة أمامه وإلى باقي الحاضرين أيضا:

- " ألا تتذكرين من هذه ؟ ألا تتذكرين من هؤلاء ؟ "

حاولت تذكر تلك الوجوه التي يسألونني عنها لكني لم أستطع، فالكل غريب عني، لا أعرف أحدا ممن يحيطون بي، ولا أشعر بشيء تجاههم.. حاولت تذكرهم لكني عجزت عن ذلك.. بل صارت تلك الوجوه في لحظة تمتزج فيما بينها كأنها انعكاسات على بقعة ماء راكدة تم تحريكها فاختلطت ملامح الصور داخلها.. واختفت الأصوات وظلت الشفاه تتحرك دون أن يصلني ما تقوله.. وتصاعدت أنفاسي في شهيق وزفير حادين حتى كادت تتوقف لولا حضور الطبيب لإسعافي.

إن الذاكرة والألم توأمان كما قالت غادة السمان، لا نستطيع قتل الألم دون سحق الذاكرة، ولعل ما أصاب رهام من فقدان للذاكرة فيه نعم كبيرة منّ الله بها عليها، فبالرغم من الألم الذي أحسته عند عدم تذكرها للوجوه التي تحوم حولها إلا أنها لن تتذكر آخر ألم كانت تشعر به، بل لن تحس به مجددا، ولن تتذكر مصدره ولا أن تسعى للتخلص منه فلا

تستطيع.. عجز الكل عن إعادة ذاكرة رهام رغم كل المحاولات التي قاموا بها، فقد حاول سليم مرارا أن يساعدها على تذكره بالاستعانة بصور قديمة لهما وكذا صور حفل زواجهما لكنها تنفي أي شعور تجاه تلك الصور وتنكر كل ما تحمله من وجوه وأشخاص أولها سليم نفسه.

اضطر أن يأخذها سليم بعد خروجها من المستشفى إلى بيت أهلها، فهناك ستلقى رعاية أفضل مما ستكون عليه في بيته، فلا سبيل له في الاعتناء بها بسبب ظروف عمله التي تقيده، وقد تستعيد بفضل أهلها وبيتها القديم جزءا من ذاكرتها في أي لحظة كما أخبره الطبيب. لم يتراجع عن رغبته في تخليص رهام من رباطه للبحث عن كمال، بل ينتظر لحظة استعادة ذاكرتها فحسب، فهو ما يزال يتذكر تلك الأسطر التي كتبتها بحرقة لذلك الرجل، تلك الكلمات التي جعلته يتأثر أشد ما يكون التأثر، وكيف لا يتأثر وقد جرب ألم الحب وألم الفراق يوما.. فقد أصبح على علم أن رهام لن تحبه يوما، وستظل جسدا أجوفا بلا روح ما دامت معه مجبرة على البقاء فقط.

بدأت تتحسن حالتها يوما بعد يوم، وصارت تقدر على الوقوف دون مساعدة أحد في ذلك، تحسنت علاقتها بالجميع، وكأنها استسلمت لفقدان ذاكرتها أو تعودت عليه، لا تسأل أحدا عما سبق في حياتها التي لا تتذكر منها شيئا، ولا تهتم بمعرفة أي شيء مما يحاولون إخبارها به، ليس الغريب ما تبديه من برود تجاه ماضيها، لكن الغريب أنها تعاملت مع حملها بحذر واهتمام كبيرين، وكأن جزء من ذاكرتها احتفظ بما يخص كمال فقط. استغل كل من حولها نسيانها لفترة زواجها وحملها وعدم سؤالها إذا ما كان جنينها من سليم أو غيره، وكأن فرصة نسيانها لذلك عمولة من السماء أزاحت عنهم عبء الخوض في موضوع أرهق الجميع، فاتبع الكل نهج فقدان جزء من الذاكرة وبالأخص الجزء الذي يخص كمال، بل تعامل الكل على أساس أن تلك البطن تعود لزوجها سليم فعلا .

استطعت بعد مدة وجيزة تقارب الأسبوعين من تاريخ استيقاظي أن أستعيد القدرة على المشي والتحرك دون مساعدة الآخرين للعودة لعملي الذي انتهت فترة إجازته، بعد أن

أخبرني الكل أني مدرسة لغة.. وأن موعد العمل قد حان.. أسعدني الأمر كثيرا.. على الأقل لدي أمر أجيد القيام به.. فكم من الصعب على الإنسان أن ينسى أمرا تعب للحصول عليه فسعد بامتهانه.. صرت قادرة على العودة للعمل بعد غياب طويل عنه، رغم أن الأمر غريب بالنسبة لشخص فقد ذاكرته، لكني لا أظن أني نسيت كيف أتعامل في فصلي..

ها هو الثاني من شتنبر قد جاء، موعد الالتحاق من جديد، اليوم الذي انتظرته منذ أن استيقظت من غيبوبتي، صففت شعري القصير، وضعت مساحيق التجميل على غير عادتي وارتديت أجمل الفساتين الزهرية في خزانتي، وقبلت جبين أمي ثم توجهت مباشرة إلى سيارتي بعد أن لاحظ الكل سعادتي وبعد أن رفضت بحزم مرافقتهم لي ظنا منهم أني لا أستطيع تذكر المسار الصحيح للطريق.. لا أنكر أني سعيدة للغاية اليوم رغم أن الطريق كان طويلا جدا، لكنه مألوف لي أكثر مما ينبغي، به منعرجات كثيرة وأهرام فوسفاطية مندثرة في كل الجوانب كأني مررت بها من قبل، أخبرني الكل أني لن أستغرق سوى عشرين دقيقة للوصول إلى مقر عملي الجديد، لكني تجاوزت النصف ساعة وما زالت الوجهة غامضة عني، يبدو أني قد أضعت الاتجاه الصحيح أو لعلي غيرت الوجهة بما يستدعيه كياني.

لم يكن المسار الذي أسلكه غريبا عني، فقد قدت السيارة باتجاه يعلمه قلبي قبل عقلي، لكن الروح قدسته، بل لم تستطع منعي من التقدم فيه، لم أتوقف إلا بعد أن لمحت لافتة في مدخل المدينة خط عليها اسم مدينة الفقيه بن صالح، وكيف لي أن أنسى هذه المدينة ؟ بل كيف لي أن أنسى أني ادعيت فقدان الذاكرة لأصل اليوم إلى المكان الذي سأجد فيه الشخص الذي فقدته، فالالتحاق بالعمل هو السبيل الوحيد والزمن الحي الذي لا يمكن أن أفلت فيه رؤية ذلك الوجه الذي غاب عني فلم أجد سبيلا للوصول إليه .

نعم . لم أفقد ذاكرتي، بل أفقدت البقية ذاكرتهم، لم يكن من السهل أن أدعي أني قد نسيت أني زوجة لرجل لا أحبه، وأني سامحت أهلا تشبتوا بأفكارهم على حساب سعادتي، أو أني أم لا تعلم مكان أب جنينها.. لكن الوصول إلى اليوم الذي أرى فيه كمال

دون تدخل من الآخرين كان دافعا قويا لتقمص الدور بشكل جيد، بل كنت في كل مرة بعد أن أتخلص من رقابة أمي وسليم أهرع لأحمل ألبوم صور ظنه الكل محذوف من ذاكرتي، أتأمل فيه وجه كمال وأدقق النظر فيه وأتمنى في الآن ذاته أن تنتقل تلك الملامح إلى مجاري الدم فتصل إلى نرجس فتتلبسها دون ترك أدنى تفصيل فيها.

كنت في كل ليلة وأنا أنتظر يوم الالتحاق أشعر أن مخزون صبري قد نفد على سعته، وأن علي مراجعة علاقتي بالألم، فالألم الذي أحسسته لم يكن قدرا، بل كان اختيارا، وما أصعب أن تتعايش مع الاختيار، لكن أمل الحصول على فرصة جديدة أبعد عني الوهن.. ففي كل ليلة من تلك الليالي كنت أنادي مقلب القلوب ليثبت قلبه على حبي، أعلم أني كنت أنانية معه ومع نفسي، وأني أبحث عن شيء سلمته بيدي دون تفكير، لكن يكفي ما نلته من عقاب ويكفي ما عشته من الليالي التي نمتها وفي قلبي من الشوق رجفة وبين أضلعي حريق .

كان من الضروري أن أدعي يومها أني لم أتعرف على أهلي وسليم، وقد كانت الفكرة وليدة إصرار سليم على الحصول على جاوب لأسئلته، بل كانت طريقة للتخلص من كل ما يمكن أن أتعرض له بعد علم أمي بمسألة حملي، وقد كان من الضروري أيضا أن أفكر في مسلك آمن للوصول لهذا اليوم دون ضغوط أو عراقيل. فقداني للذاكرة خلصني من العودة لمنزل سليم أيضا، ففي كل مرة حاول فيها اقتراح عودتي معه كنت أدعي أني لا أستطيع تحمل ألم رأسي وأني لا أقوى على الاعتناء بجنيني الذي ظن الكل أني نسبته له، لم يكن يعلم أني أعلم اشمئزازه من هذه النطفة كلما قلت عنها أنها له، لكنها كانت الطريقة الوحيدة لأتخلص منه ومن اهتمامه البائس ذاك. أما أمي فظنت أن نسياني لتفاصيل ما حدث كفيل بإعادة المياه لمجراها، بل تعاملت مع حملي بحذر تام، فراعت فيه وجه الأمومة وتكلفت بمأكلي ومشربي ومرقدي كما عهدت منها من اهتمام قبل كل ما حدث، لا أنكر أني اشتقت لعطفها أشد الاشتياق وكم تمنيت لو أنها لم تنزع ثوب الأمومة في الوقت الذي

احتجتها فيه، فلا شيء يستطيع تأكيد عدم حبها لي، لكن كل شيء يؤكد أنها أخطأت في حقي أكثر مما أخطأت في حق نفسي .

توقفت عند مدخل المدينة لبرهة.. أتذكر فيها سلسلة من الأحداث التي مررت بها منذ آخر مرة رأيته فيها.. لأني كنت على يقين أني سأراه اليوم.. لم أجد جوابا على السؤال الذي سيطرحه علي.. لكني على دراية بما يجب علي فعله.. سأعانقه لأخبره بهمس أن نرجس تشم رائحته لأول مرة وستسمع صوته أيضا رغم أنها تعرف وجهه سلفا.. تنفست الصعداء بعدها ورفعت وجهي للسماء.. لا أعرف لما بدت لي متجهمة رغم أنها صافية بلا غيوم .. ولم الأرض كانت شاحبة رغم وجود الحدائق فيها.. حتى وجه شرطي المرور تعتليه صفرة كأنه على علم أن ثلاثة قلوب ستلتقي بعد طول غياب.

لم يعد شيء في الكون قادر على ثنيي من رؤيته، حتى لو أطبقت تلك السماء على أرضها فخسفت بذلك الشرطي، فهو اللقاء الذي لطالما انتظرته بعد طول فراق، لحظة يزداد فيها نبض القلوب فتتجمد المشاعر من فرحه، لحظة فيها من الوفاء ما يروي الأحاسيس، لحظة بعثت في النفوس أمل الحياة من جديد، لحظة أنستني التوجه لمقر عملي فقصدت مقر عمله. لم أجد صعوبة في الوصول إلى المؤسسة حيث انتقل كمال، إنها مدينة صغيرة شوارعها ضيقة وصغيرة أصغر من شرايين قلبي ما يكاد المرء أن يضيع فيها حتى يجد منفذا للعبور إلى وجهته دون عناء، ركنت السيارة وراء سور المؤسسة كي لا يتعرف عليها قبل أن ألمحه، أعرف أنه قد اشتاق لرؤيتي، بل متأكدة أنه مشتاق لضمي بقوة إلى صدره رغم كل ما قمت به، لكني أعي جيدا مدى تمسكه بعزة نفسه وكبريائه، ليس تكبرا منه وإنما عزة، وابتعاد عما يقلل من شأنه، وقد رأى أني قللت من قيمته، لذلك قد يستغني عن رؤيتي حينما يلمح سيارتي. ابتعدت قليلا عن مدخل المؤسسة أترقب حضوره على طول الشارع حيث لمحت وفدا من المدرسين في اتجاههم لمدخل الثانوية.. كل الوجوه غريبة لا صلة لي بها.. ولا وجه بينهم له صلة بي.. تكاد أنفاسي تتوقف كلما لمحت طيف رجل

قصير القامة أبيض البشرة أنيق الهندام يمشي في اختيال.. فأصر على استعادتها بصعوبة بعدما أتأكد أنه لم يحضر بعد..

تكاد الساعة التاسعة أن تدخل في العدم، ويكاد قلبي أن يتوقف عن النبض، اختفت كل وجوه العلم التي توجهت للتوقيع على بداية موسمها الجديد، لكن وجه كمال لم يكن بينها، فعلمت ساعتها أنه قد حضر قبل الموعد أو ربما قد تخلف عن الحضور لسبب ما، لم يكن الأمر دافعا لأغادر المكان، بل كنت مصرة على البقاء إلى حين الانتهاء من اجتماعهم حتى لو كلفني الأمر طردي من العمل، فلا الشمس الحارقة كانت لتنهاني عن رؤيته يومها، ولا جفاف فمي من قطرات الماء سبب يزعزع استقراري فوق هذه الصخرة الصلبة بعد أن أحسست أخيرا أن كل المسافات بدأت تتلاشى بيني وبينه، بل عجزت روحي وعيني من فرط الشوق أن تضبطا نفسيهما، فصارتا تتراقصان كقدر معدني سقط في جوف الليل ليوقظ كل الأنام من سباتهم .. عانقني شوق الحياة من جديد، وتبخر جو الألم واندثر، صرت شاردة، حالمة، محلقة أحاول السيطرة على ما تبقى من روحي، فعبق طيفه يلوح في كل أركان خيالي كمهاجر عاد إلى وطنه.

عادت وفود المدرسين تخرج من الباب مجددا بعد أن مرت ساعات انتظار طويلة، اختلطت فيها الإناث والذكور، حتى كاد يختفي بينها ذلك الجسد الذي أبحث عنه، ها أنا أرى أخيرا طيفا جميلا حسن المظهر ينفلت من بينهم في خطوات سريعة واثقة، توقفت أنفاسي لبرهة فصار عمري في فصول السنة بديع يضاهي الربيع في روعته ورونقه، بل صارت أصوات الشارع والسيارات ترانيم حياة ترقص بالجاذبية والروحانية، فنسيت كل ما مررت به من ألم، وعذاب، وحزن، ومرارة عيش في غيابه .. قفزت من مكاني ممسكة قلبي مخافة سقوطه، وتوجهت مباشرة إلى مساره أتبع خطاه السريعة التي يصعب علي مجاراتها، حتى خفت ضياعه من يدي بسببها، فتغيب معها فرحة لقائه فلا أجد ريحه إلا بعد عناء كبير..

لحقت به بسرعة دون مناداته بعد أن فضلت معرفة منزله أولا تحسبا لأي ردة فعل منه، فلا أستطيع العثور عليه بعدها، انتابني الخوف الشديد كلما اقتربت منه، بل دعوت ألا يلتفت صدفة فيجدني وراءه رغم أني تمنيت لو يلتفت فيضمني بقوة. ابتعدنا عن المؤسسة بعد دقائق معدودات فصارت خطاه تتثاقل شيئا فشيئا وكأننا قد اقتربنا من مسكنه، فكرت ساعتها التراجع قليلا كي أراقب دخوله من بعيد فأطرق الباب بعده مباشرة، لكنه توقف فجأة عن المشي وتناول هاتفه ليجري مكالمة سريعة، حاولت فيها أن أحفل برؤية أديمه الذي لم أره بعد، لكنه سرعان ما أغلق الخط دون أن يقدم على خطوة بعد، يتفحص الشارع أمامه كأنما ينتظر شخصا على عجل، فعلمت حينها أنه ينتظر قدوم حسناء أخته أو زوجها اللذان يقطنان بنفس المدينة أو ربما صديقا يؤنس وحدته وهو أشد الكارهين للبقاء وحيدا، فأيقنت بعدها أن مسألة لحاقي به لبيته أصبحت خطة فاشلة.

توقفت سيارة أجرة من الصنف الصغير.. فتوقفت معها أحلامي من جديد.. توقفت معها أنفاسي.. وتوقفت معها القدرة على الحياة.. أصبحت كل تلك الترانيم من حولي نواح امرأة جاهلة في مأثم قريب.. وكأن الأصوات خناجر سود صدئة تطعنني من كل صوب.. واللوحة التي أمامي خربشات رسام ثمل عبث ببياضها بأبشع الألوان.. أصابع ترتجف مرتطمة بوجهي محاولة صد ما تراه عيني.. وركب خرت على الأرض كمصارع قد من دبر.. فانطلقت مطافئ الحريق تنهمر كشلال غزير.. تسكب دموع ضعفي فوق صدري وتستجدي الزمن للتوقف.

كمريض يجري عملية جراحية بالقلب دون مخدر، هكذا الخذلان.. لم تتوقع أن كمال قد ينساها بتلك السرعة الفائقة رغم أنها حدست من قبل بذلك، لكن الأمل تلاعب بثقتها في حدسها فأرادت تكذيبه، لم تتخيل يوما أن يكون بيتا ترعاه امرأة غيرها دون أن يكلف نفسه عناء انتظارها لفترة من الزمن.. فهي تعلم أنه أول مخذول في مسعاه، لكن من درجات الحب القصوى التي لم يخبرها كمال عنها أن تكون أنانيا، وقد أصابها جزء وفير من تلك الأنانية، فظنت أنها ستجد نفس القلب في انتظارها مضحيا بسعادته وراحته مقابل

رؤيتها مجددا، ونسيت أن الإنسان بطبعه يميل إلى الأنس وأشد الميالين إليه كمال. ظلت صورة تلك المرأة وهي تنزل من سيارة الأجرة عالقة بذهنها، فقد رأت بأم عينها كيف أمسك بيدها الملطخة بالحناء ليساعدها على النزول، وكيف ضمها إليه مرحبا بقدومها والابتسامة تلتهم ملامحه، كما أحاط خصرها بيده اليسرى وبنفس الطريقة التي كان يمسك بها رهام في كل مرة خرجا فيها معا إلى مكان خال به أودية أو سواقي، وكأنه يريد إخبار العالم بأسره أن تلك المرأة التي ترتدي جلبابا ورديا مطروزا باللون الأزرق وتحمل حقيبة لامعة زوجته، فهو لطالما قد مازح رهام بزيجته تلك قبل زمن، وكان يخبرها دون أن يعلم أن الأمر مؤلم لها حتى لو كان مزاحا أن الزوجة التي سيختارها لا تشبهها في شيء، بل ستكون امرأة بقلب قوي، لديها من القوة والحزم ورباطة الجأش بقدر الرقة والحنان والنعومة، تحمل همه وهم بيته لا سواهما لا يهمها الآخرون وما يقولون، وترضى بما يعطيه لها مهما كان قليلا، تسير معه في أي طريق دون استفسار، ولا تهتم بالتفاصيل بل ما يهمها أن يكونا معا.. لم تظن رهام أنه كان فعلا يفكر في الزواج بغيرها في حالة رحلت عنه وأن تلك التفاصيل لا تملكها فعلا لتحثه على انتظارها. ومما لا شك فيه أن زواج كمال بداية جديدة أوهم نفسه بها وصدقها ليخلق أملا جديدا يضيء له العتمة التي تركتها رهام بعد زواجها الكاذب أيضا، فادعاء إمكانية حياة جديدة ليس سوى مخدر نحقن به وريدنا لنسكن ألم الهجران والفقد والخذلان .

الانتظار مؤلم والنسيان مؤلم أيضا، لكن الأكثر ألما هو ادعاء النسيان، ومعرفة أيهم تفعل هو أسوأ أنواع المعاناة، كنت مضطرة لجبر قلبي بيدي، لا لشيء سوى لأني أنا السبب في كسره، لما آلمني ما قام به كمال وقد قمت بمثل ما قام به وكنت السباقة إليه، ألم أفكر في أن ألمه كان أقوى يوم علم بزواجي بسليم، كم كنت غبية حينما ظننت أني قد أجده بانتظاري، أو أنه سيهرع لضمي ما إن يراني خلفه، فحب كمال لي لم يكن كافيا ليخلق منه ملاكا ينتظر من خانه بصدر رحب فيوقف حياته خدمة لذلك الحب، أعلم أنه إنسان . توقفت كل نزعات اللوم بعد أن تذكرت ما قمت به، فمن الغباء أن نلوم شخصا على عدم إخلاصه لشخص غير موجود في حياته، بل من الغباء أن نحاول إحياء شيء قد قتلناه

بأيدينا، كانت صورة كمال مع زوجته يومها ممسكين بأيدي بعضهما سببا كافيا لأستيقظ من الحلم الذي حبك الشوق خيوطه، وطريقا لهدم بيت الأحلام النرجسية التي بنيته من رمال، وُهن البيت ومُزقت الحبال واندثر كل أمل كان متبقيا لي، فكفكفت دموعي بعد أن اكتملت الصورة وهما يدخلان عشهما السعيد معا.

إنه البيت الذي تخيلت يا كمال أني أدخله في شتنبر وأنت تمسك فيه بيدي وترحب بي وتتحدث فيه مع نرجس في كل حين تخبرها عن الألم الذي عانيته بسبب أمها وتشكو لها صبابة عشقك، ها قد جاء شتنبر وقد دخلت بيتك ممسكا بيد أخرى ترحب بامرأة أخرى.. فقد تمنيت أن يصل شتنبر هذه السنة على أحر من الجمر وأن يكون قدومه سعيدا كالسنة الماضية، بل حاربت كما يحارب الشرفاء لإدراكه وأنا بين يديك، أضمك، أشم ريحك، ألتهم أصابعك من فرط الشوق، أقبل جبينك وأنا أطلب منك الصفح، ألون شتنبر الجديد بأبهى الألوان، لكنه أصر أن يأتي أسودا قاتما.. لحقت عملي الذي تبقى لي من بين كل ما أضعته، بعد أن أدركت أني كنت مجرد ذكرى في ذهن من فقدت الذاكرة من أجله. عدت أدراجي بسرعة خاطفة وكأن قوة خفية عملت على تصليب ذاتي فجردتها من كل شعور، وكأن القلب بعدها صار موقد نار ما إن يلقى فيه شعور حتى يحترق، فباتت كل الذكريات والأماني كومة قش تثير في جوفي شهوة الاحتراق.

لحقت مؤسستي بعدما وجدت الكل قد غادر مكان العمل، لم أجد سوى رجلا شاحب الملامح لحيته خفيفة بيضاء عليه علامات السأم والضجر كأنه يشتكي قدوم أيلول أيضا، يحاول فتح الباب لي بعدما طرقته بضعف ظاهر، سألته بعدما استعدت بعضا من أنفاسي:

- "هل غادر المدير سيدي ؟"

من حسن حظي البائس أني قد وجدت المدير ما يزال في مكتبه يتجاذب أطراف الحديث مع أحدهم، فطرقت الباب وانتظرت إذن الدخول بعدها.. لاحظت بعد برهة الهيئة التي

سأقابل بها مديري الجديد، لم أكن أمت بصلة للتعليم، كانت ملامحي كمن خرجت من وسط شجار شعبي كبير اجترت فيه خصلات شعري وتبعثر فيه فستاني الزهري فصار كل جزء منه في زاوية مختلفة كما اختفت ملامح وجهي وكأنها بلون واحد من طين.. لم أنتبه لصوت المدير يطلب مني الدخول إلا بعد أن تكلف بفتح الباب بنفسه، كانت تبدو عليه أمارات التعجب من وجودي في هذا الوقت، فعرفته بنفسي دون أن يكلف نفسه عناء السؤال أيضا:

- " أنا الأستاذة رهام حديثة الانتقال إلى مؤسستكم "

تفحصتني عيناه من رأسي إلى أخمص قدماي، وكأنه ينتظر مني أن أستدرك فأخبره أني عاملة أخرى أو ولي أمر تلميذ أو أي شيء ما عدا قولي أني مدرسة.. طلب مني الجلوس بعدما قام برفع حاجبيه وإطلاق تنهيدة تكشف تعجبه من هول المنظر الذي أمامه، سألني مباشرة ودون تردد عن سبب تأخري عن موعد توقيع محضر الدخول، كانت بداخلي قوة تدفعني لأخبره بكل ما حدث، أخبره أني لم أكن أنوي القدوم، أخبره أني كنت أنوي التخلي عن كل شيء لألتحق بالرجل الذي أحببته، أخبره أني كنت في طريقي لتقديم هدية ثمينة لطالما انتظرها كمال، أخبره أني تأخرت لأشهد عناق حبيبي بامرأة أخرى اختارها له القدر، أخبره بأني فاشلة في كل شيء فلا يتوقع مني أي نجاح في مؤسسته.. ترادفت الكلمات في حلقي وتزاحمت فانطلقت دموعي تنهمر بشدة لم يفهم المدير سببها بل انتابه الشك في سلامة صحتي النفسية، ناولني منديلا وعلامات الشفقة بادية عليه، ظن أني ارتبكت بسبب سؤاله أو انتقالي الحديث بالمؤسسة وتأخري عن أول موعد لي للتوقيع، فقام يناولني بعدها مباشرة استعمال الزمن الخاص بي وما إن أمسكته حتى هاجمتني ذكرى السنة الماضية حينما حصلنا على دوام مشابه فازدادت رغبتي في البكاء دون أن أقدر على كبحها ولو قليلا، شهقت وذرفت الكثير من الدموع وكأن في حضرته أستطيع البكاء دون تبرير أو خوف ... مسحت دموعي بعدما أفرغت ما علق بهما من تعب ورغبة في الموت وعدت لوعيي فأمسكت بورقة التوقيت، لم أطلع عليها بل طلبت منه مباشرة أن يسمح لي بالتوقيع لمغادرة المكان

لأني لست في صحة جيدة، تعجب من تصرفاتي غير المعقولة، لم يكن يعلم أن كل ما ينتظره من مدرسة لا يعنيني، وأن هذا الدخول المدرسي لا طعم له ولا لون بالنسبة لي، كما لا يهمني فيه لا توقيع ولا تدبير فائض ولا عدد ساعات العمل، فقد وهنت قواي لدرجة لم يعد يهمني ما سيحصل، وما سيحصل لن يخيفني، لأني جربت أمرّ ما في الحياة، إنه الفقد، فقد التعود، فقد الانتماء.

غادرت المكتب فور توقيعي وتوجهت صوب مكان مجهول قادتني إليه سيارتي لا أعلم كيف وصلت إليه ولا أي طريق سلكت حتى وجدته، مكان خال موحش لا وجود لريح البشر فيه، به بعض من أطلال بيت قديم منهوك تركه أهله ولم يرممه أحد بعدهم، تملؤه بقايا قنينات الخمر الزجاجية الخضراء المتكسرة، اتخذت مجلسا فوق عتبته المخربة وشمس العصر الحارقة الخافتة تضرب في عرض وجهي كصفعة تحاول إيقاظ ما تبقى في من إحساس، أو كأنها تريد تذكيري أني لست وحدي في هذا المكان الموحش، بل إني أحمل معي أعظم كنز أهدته لي الحياة رغم قساوتها معي. تذكرت فعلا أني أحمل في أحشائي فتاة جميلة ستنسيني ما خسرته وستعوضني خير عوض، أعلم علم اليقين أنها صبية رغم أنها ما تزال في بداية شهرها الثالث فقط لكني أشعر بها كما كنت أشعر بكمال في قلبي، ترفرف في أحشائي كنقطة عسل حلو، تداعب مشاعر الأمومة بداخلي وتواسي أوجاعي، وتجبر خاطري المكسور. وضعت يدي في موضعها لأخبرها بكل ما تضيق به نفسي فهي المخلوق الوحيد الذي يستحق أن أشكو له بثي بعد الله:

- " نرجس . نعم نرجس، هكذا سماك كمال حينما كنا نحلم معا بإنجابك لكن القدر أراد شيئا آخر، أراد أن تولدي بين يدي أحدنا دون الآخر، أراد أن نفترق في كل مرة دون أمل في اللقاء، لا أخفيك علما أني أخطأت في حقه، لكني كنت مجبرة أيضا، وثقي بي أن زواجي لم يكن خيانة لك بل لم أكن أعلم أنك في الطريق إلينا، لقد كنت مرغمة على إسعاد الآخرين وإلغاء سعادتنا، لكن هذا لا ينكر أني قد أحببته أكثر مما كان يظنه، فهو على علم أني لم أنتمي يوما لأحد غيره، بل لم أعرف شعور

الانتماء إلا معه، كما لا شك أنه يعلم أني الآن فقدت كل شيء بعد غيابه. كم تمنيت لو استدار اليوم ليعيدني، ليخبرني أن ما رأيته كذب وخيالات، وأن تلك المرأة الغريبة التي ضمها قريبة حلت ضيفة فقط..

أتعلمين يا نرجس ما أشد أنواع العذاب قساوة.. إنه ألم الضعف .. فالضعف ألم كبير ينخر الذات لا يتوقف إلا بعد هدمها.. وأكثر ما آذاني يا حبيبتي أني وبكل ما أوتيت من ضعف ووهن حاولت إظهار قوتي.. وبكل ما أوتيت من قوة تماديت في ضعفي.. فما آذاني بعمق سوى من أسكنتهم في أماكن ضعفي، أمي، أبي، أختي، حتى من لم أتوقع خذلانه.. أباك .

لا أعرف متى سيعلم كمال بحقيقة وجودك، لكن لا شك عندي أنه قد يأتي يوم يشعر فيه بوجودك، أدري أنك تلومينني أنت الأخرى على صمتي مجددا عن هذه الحقيقة، لكن ثقي بي أني لا أريد تدمير أسرته الصغيرة، فقد تأكدت تمام التأكد أن أباك ليس من نصيبي، وأنك مجبرة أنت الأخرى أن تعيشي بعيدة عن حبه ورعايته، لكن اعلمي أيضا عزيزتي أنه أحبك حتى قبل أن يكون لك وجود، وكان ليرعاك خير رعاية لو أنجبت في كنفه، فحافظي على حب كمال في قلبك أيضا إلى أن يشتد عودك، وما إن تكبري سيكون قرار البحث عنه خاصا بك لن أمنعك منه، وفي حال وجدته أخبريه أني سميتك نرجس، وأني قد أحببته وما زلت أحبه وسأظل أحبه إلى أن تصعد روحي عنان السماء . "

تعجب الكل من حالة رهام بعد عودتها متأخرة للبيت، وجدت الكل في حالة قلق شديد، بعد أن ظنوا أنها أضاعت طريق العودة، لم تقو على تفسير الحالة التي دخلت بها، فقد كان وجهها مصفرا، وأنفها يتقاطر دما، كان شكلها مخيفا، لكن ما إن علم الكل أن الدم بسبب حرارة جسمها المرتفعة حتى أسرعت لغرفتها وأغلقت الباب بعدها ترفض أي حديث مع البقية، كثرت التأويلات فمنهم من اعتقد أنها حصلت على استعمال زمن سيء، ومن هم من جزم أنها تألمت من فقد ذاكرتها، إلا أمها، فقد كان لها رأي آخر، فقد تأكدت أنها قد تذكرت كل شيء . لم تستطع الحفاظ على صبرها لمعرفة ما حدث، فما وجدت حلا

إلا أن تقصد غرفة ابنتها لتعرفة بنفسها ما حصل، سألت رهام مرارا وتكرارا عن سبب بكائها وتعاستها ونزيف أنفها بذلك الشكل وحالتها المخيفة التي دخلت بها، وسبب تأخرها الغريب ذاك.. كيف ستخبرك أنها أصابت بالخيبة لأنها رسمت طوال الوقت في مخيلتها أن من أحبته لا يستطيع الاستغناء عنها رغم ما قامت به، وكيف ستخبرك أن من حاربت الكون لأجله ومن وعدها بالإبقاء على ذلك الحب إلى أن ينهيه الموت قد خان الوعد أيضا، وأن فقدان ذاكرتها الذي ادعته حيلة مكنتها من الوصول إلى حقيقة الكون فقط، حقيقة الاستغناء واللانتماء، حقيقة التخلي وحذف الماضي بسهولة.

إن الأمر يا رهام ليس استغناء وإنما القدرة على التخلي، تلك القدرة التي تمكن منها كمال ولم تتمكني منها لا أنت ولا سليم ولا أمك، فقدرة الإنسان العاطفية تكمن في قدرته على التخلي.. فبالرغم من قسوته إلا أنه سبيل لإكمال ما تبقى من الحياة في حال استوعبنا أن ما حاربنا من أجله ليس نصيبا لنا، فالتخلي في ظاهره جريمة وفي باطنه رحمة، ففي كل مرة تتخلى فيها عن شيء أو شخص أحببته تقتل جزءا منك ظل يقتات عليك لفترة، أن تقتل نفسك يتطلب جرأة أعلى من جرأة البقاء حيا بلا مجازفات، ولكن الفرق أنك عندما تقتل تلك النفس ستنهي اللعبة التي طالما أنهكتك، فتنبعث من جديد وتلامس زوايا جديدة تلامس روحك لتعود لنفس الدوامة مرة أخرى، لكن بقدرة على التخلي أكبر من الأولى، وقد فطن لذلك كمال وعلم أن من لا يتخلون يسيطر عليهم الخوف فيستنزفون الكثير من الوقت والمساحات والمشاعر دون جدوى فعدم التخلي عن الماضي هدر للمشاعر وإنهاك للقلوب فحسب . وما على رهام اليوم أيضا إلا أن تخرج من زاوية كمال التي ترفض التخلي عنها، رغم صعوبة إحساس البدء مرة أخرى من الصفر والانطلاقة نحو حياة جديدة خالية من ذلك الشخص، وما أول خطوة لذلك سوى عدم رفض مشاعر القهر التي تعيشها الآن وعدم مقاومتها بل ممارستها وتأملها حتى تفيض معها مكنونات النفس وتسأم اللوم والبكاء فالتذكر فالحذف..، ضمت أمها بقوة وغرست وجهها الصغير داخل حضنها كي تتفادى تصادم أعينهما دون التوقف عن البكاء بعدما حاولت إخراج أول كلمات الاعتراف بما قامت به، فمهما كان صنيع أمها إلا أنها الإنسان الوحيد الذي لن يتخلى عنها حتى لو اكتسب

القدرة على ذلك.. أخبرتها بكل ما حدث منذ لحظة زواجها بسليم إلى الآن وكم كانت تعيسة بذلك الزواج المدبر، وأن حملها كان السبب الوحيد الذي دفعها للحفاظ على هذه الحياة رغم بؤسها، كما أنها لم تجد مهربا أيضا من أن تعترف لها بادعائها فقدان الذاكرة بعدما تسبب لها سليم في تلك الحادثة التي تمنت لو لم تنجو منها اليوم بعد رؤية كمال في حضن امرأة أخرى...

غفت المسكينة في حضن أمها بعد أن أخرجت ما كان عالقا بحلقها من اعترافات لها، ولم تتعجب الأخرى مما أخبرتها به ابنتها، فقد كانت على علم بكل شيء، ولعل الشيء الوحيد الذي أحست أنه قد آلمها هو معرفتها بحقيقة سليم الذي ظنته زوجا مناسبا، علمت حق اليقين أن لا أحد يستطيع الجزم في حقيقة البشر وأن ما نختاره لن يكون بالضرورة صائبا، بل قد يكون عين الخطأ، فعضت أناملها وضربت كفها ندما على ما فعلته بها، فتأسفت على ما بدر منها، لقد شعرت حقا بندم وحسرة ينهشان قلبها نهشا على حال ابنتها، فاشتعلت في صدرها نار حامية توعدت بها سليما في الغد، فهمست في أذن ابنتها بصوت تملؤه الغصة والكثير من الألم وهي تمسح على رأسها بلطف:

- " أعلم أني أخطأت معك يا بنيتي منذ البداية، وأني السبب في كل ما حصل، لن ألومك على حملك غير الشرعي لأني المسؤولة عن عدم شرعيته، ولن ألومك على الكذب الذي اختلقته لأنك كنت سجينة تبحث عن الحرية فكنت الجلاد والسجان.. سامحيني على كل الألم الذي تسببت لك فيه، فقد ظننت أن الأمهات خلقن للتصرف في حياة أطفالهن، وقد كنت طفلتي الصغيرة وما زلت، لكني أدركت أنك طفلة عاقلة أودى بها جهل أمها إلى الوقوع في الخطأ، وتمادت حتى بعد أن أدركت.. أعدك اليوم يا بنيتي أني سأصلح ما تبقى لي إصلاحه .. "

لن ترتاح أم رهام بعد كل ما سمعته إلا بعد أن تقف على تطليق ابنتها من سليم في أقرب وقت، لا تعلم هي الأخرى أن سليما قد عزم على ذلك من قبل منذ اللحظة التي قرأ فيها رسالة رهام تلك، رغم أن مسألة الطلاق بالنسبة لها مصيبة لم تحسب لها حسابا

يوما، وهي التي تعطي أهمية قصوى لنظرات الناس وأفواههم، فالطلاق بالنسبة للمرأة في مجتمعاتنا وصمة عار، وهي أكثر الناس علما بما ستعانيه ابنتها بعد طلاقها المبكر، فلن ترحمهم أفواه الجيران ولا العائلة ولا المقربين... لكن ما أصبح يولي درجة الأهمية لديها الآن هو ابنتها، بل لن تكرر الأخطاء السالفة، لذا عزمت على الاتصال بسليم دون تردد تخبره أنها تنتظره لتناقشه في موضوع مهم، ظن سليم أن الموضوع يخص سلامة رهام الصحية فحضر دون تردد أو تأخر بل جاء قبل الموعد بدقائق، دخل غرفة المعيشة حيث وجد الكل بانتظاره، مجتمعون كعادتهم حينما يتفقون على موضوع ما، يجلس كل واحد منهم في زاوية جلسة المتنبه اليقظ، تنقصهم رهام فقط بعد أن لزمت غرفتها منذ ليلة الأمس. أحس سليم ببعض الارتباك فقد غابت عنه آخر الأحداث ولا يعلم آخر المستجدات، اقتربت منه أم رهام بخطوات ثقيلة وعيناها يتطاير منهما الشرر، ثبتت نظراتها على عينيه جيدا ثم حملت كفها بكل ما تملكه من قوة لترسم صفعة قوية على خده الأبيض فتترك أثرا يتذكره كلما تذكر ما قام به مع رهام يوما، أمسك وجهه بيده وكأنه ظن أنه يكاد يسقط من فرط الصفعة لكن دون أن يتجرأ على التفوه بكلمة، وكيف سيتجرأ على التحدث أمام من استغل سذاجتها للوصول إلى مبتغاه. متى كان الحب انتقاما ورد اعتبار، متى كان الحب كبرياء وكرامة، فالحب أرقى مشاعر الإنسانية التي تجمع بين شخصين دون سابق إنذار، فلا الكلمات قادرة على وصفه ولا الزمن قادر على إحيائه بعد موته ولا الكبرياء قادر على كسره أو جبره فهو أبسط مما نتخيل، إنه مجرد رابطة تحدث بين قلبين دون إكراه، وما إن تتسلل كل المفردات الأخرى داخل دائرته حتى تفسده في حالة إذا ما كان حبا في الأصل أو حب تملك فحسب . تجاوز سليم الصفعة وحاول التظاهر بأنه لا يعلم سبب ما يحدث، لكن أم رهام قاطعته قبل إكمال جملته :

- " اسمع جيدا يا سليم، فأنا على علم بكل ما قمت به، وبالمعاملة الخسيسة التي عاملت بها ابنتي في بيتك، والإجبار الذي مارسته عليها، وأعلم أيضا أنك هددتها بالبقاء معك حتى بعد أن علمت أنها تحمل طفلا من رجل آخر، بل تمادت بك الوقاحة بأن تعنفها وتتسبب لها في حادث كاد أن يودي بحياتها وما يزال أثره قائما

على صحتها للآن دون أن تعترف بذلك.. طلقها يا سليم فلا هي تحبك ولا نحن نريدك فردا في عائلتنا.."

أجابها قبل أن يغادر دون تردد هذه المرة وكأنه تخلص من كل الأقنعة التي كان يرتديها، فلطالما كان معروفا بتلونه كالحرباء ما إن تحزم أنه إنسان سوي، مخلص، محب حتى تكتشف في موقف آخر أنه مخادع، مغرور ، وعنيد...

- " يبدو أنك تناسيت بسرعة أنك من أجبر ابنتها على التخلي عمن تحب، وأنك من أرغمها على الزواج بمن تكرهه، لقد أعماك الطمع في الاستقرار والقرب بمن يضمن لك ذلك الاستقرار، ظننت أن مشاعر ابنتك مجرد نزوة قابلة للزوال لا تحتاج اهتماما بل صدا وعدم اكتراث، لم تكلفي نفسك عناء التأكد من أنها موافقة على هذا الزواج، بل قررت بنفسك إدخالها في حياة كانت ترفضها أمامك باستمرار، فلا تحاولي التملص من مسؤولياتك أيضا، كما أني قد قررت تطليقها قبل أن تستيقظي من غفوتك اليوم . "

سمعت رهام من وراء باب غرفتها الموصد كل ما دار من شجار بين سليم وأمها، أحست أخيرا أن والدتها قد عادت لصفها ولو بعد حين، بل عادت لدورها السابق، الأم الرؤوم التي ألفت مساندتها منذ كانت صبية صغيرة، الأم التي تقف درعا صلبا أمام كل ما يمكن أن يؤذيها.. اغرورقت عيناها المنتفختان بالدموع مجددا، فخرت على ركبتيها الضعيفتين تغطي عينيها بيديها كمن يعترف بهزيمته، وضعفه، وسقوطه... إنه الاستسلام، إنه الانهزام النفسي، فما كانت تحارب لأجله وتطلب الطلاق من أجله لم يعد موجودا، فما فائدة ما وصلت إليه بعد جهد جهيد، فأسوء ما يصيب المرء منا أن ييأس، أن يجهل القادم، أن يتوقف عن التفكير، وأن يتوقف عن الأمل.. مرت أيام ظلت فيها رهام على حالها ذاك تجاهد النفس في المأكل والمشرب والعمل مخافة على نرجس فقط، وكأن السبب الوحيد الذي يربطها بالحياة هو تلك الحياة الموجودة في بطنها فحسب، تتناول بعض لقيمات الطعام وتتجرع بعض قطرات الماء لتحافظ على حياة ابنتها، وتحاول التأقلم مع

ضعف صحتها المفاجئ، فقد أصبحت تعاني من نزيف في الأنف بشكل مستمر، لكنها كانت مصرة على أن تزاول عملها الجاف دون قوة ولا اهتمام لتضمن سبيل عيشها وعيش أسرتها ومستقبل ابنتها لا غير.

غادرت للعمل مجبرة رغم ضعف إرادتي وهزالة جسمي وقوتي، فلا سبيل للتخلي عن ذلك العمل أيضا، أتذكر كم أحببت التعليم وكم زاد حبي له في السنة التي اشتغلت فيها بجواره، كان للمؤسسة طعم، وللتلاميذ ميزة، وللمدير حضور، وللحراس مكانة، حتى الأعوان فيها كانت لهم حلاوتهم، كانت نظرات الكل لنا تبعث السرور في قلبي، حتى الحاسدة منها، اشتقت لكل شعور أحسست به وقتها وأفتقده الآن، اشتقت لكمال، اشتقت لحجرتي بجانبه، اشتقت لتلامذتي، اشتقت لمديري، اشتقت للحارس في الباب، اشتقت لمدرسة التربية الإسلامية وهي تسأل عن تاريخ زواجنا وانتقالنا في كل مرة، اشتقت لمحاولات التلميذات لإغاظتي بالتقرب منه في الساحة، اشتقت لتفحص الجيران لنا عند الخروج من البيت، اشتقت لدردشات عائشة صاحبة المنزل وتمنياتها لنا بالتوفيق، اشتقت لتفاصيل تلك القرية كلها... فقدت طعم كل شيء بعده حتى طعم استنشاق الهواء، أصبحت الحياة مرّة بطعم الحنظل، مملة بسوء منقطع النظير، لم يعد ما يشغلني أو يحرك بداخلي شعورا سوى شعوري بالألم وشعوري بابنتي.. نرجس، يا للعجب حتى السبب الذي ما زلت أعيش من أجله يرتبط به، فقد أخبرني يوما أني لن أتخلص منه حتى لو حاولت ذلك، ولم يعلم أن الحياة من اختارت ألا تخلصني منه..

مرت مدة طويلة وأنا على نفس الحال، أعيش بلا رغبة في العيش، وأحاول أن أتأقلم مع مرضي الذي أبيت أن أكشف عنه، وقد كان حضوري في العمل أيضا باهتا، أكاد أحضر أياما قليلة في الأسبوع، فقد منّ علي المدير بساعات عمل قليلة بعدما علم أني حامل، أشتغل بعض الساعات في كل من يوم الاثنين والأربعاء والخميس، لم تكن لي اصطدامات بكل العاملين بالمؤسسة، أو بالأحرى كنت أتعمد التخلص من كل ما من شأنه أن يوقعني في نقاشات معهم لا أستطيع الخروج منها، أصبحت حديث الكل في فترة من الزمن، وكان من الطبيعي أن يحصل ذلك، لقد كنت معروفة بتهاوني وعدم اهتمامي، لا أهتم بواجبي تجاه التلاميذ كما ينبغي، ولا أعير العمل أدنى أهمية، حتى أنه قد حصل وطالب المدير بحضور مفتش التربية اليوم ليطلع على ما يحدث في حجرتي الدراسية دون إخباري بالأمر، كانت حصة النصوص الشعرية، دخل المفتش القاعة بعد أن أخذ الإذن بطرق الباب، تفاجأت من حضوره لكن لم تبد علي أدنى أمارات التوتر، ظن أنها ثقة وثبات، لكنها عدم اهتمام واكتراث، وكيف سيعلم ذلك وهو لا يعرف سبب هذه الشخصية الجافة الباردة الميتة، لم يغير حضور المفتش شيئا من تعاملي في أثناء الحصة، فقد مرت كما تمر باقي الحصص، جمود تام للتلاميذ خوفا من ردة فعل إنسانة لا يعرفون لها رد فعل ولا يتوقعون حتى نوعه، فهم لم يخبروا منذ بداية السنة إلى الآن وقد مر ما يقارب الدورة الأولى كاملة أي نوع من الشخصيات أنا، فلا ملامحي ولا صوتي كانا واضحين لاكتشاف نوع التعامل الذي يجب أن يتعاملوا به معي، لا يعلمون شيئا عني سوى أني امرأة حامل بطنها منتفخة تكاد تخرج صوتا أو ترد على سؤال أو تعطي إجابة، كان الشيء الوحيد الذي أجدته في هذه الفترة معهم هو كيفية الاعتماد على أنفسهم في بناء دروسهم، حتى أنهم أحيانا كانوا ملزمين ببناء الدرس دون أن يستشروني في شيء، وربما هذا ما شفع لي أمام المفتش، بعدما لاحظ هدوءهم الغريب، واشتغالهم في صمت دون الحاجة لتوجيهي، فبالكاد سمع مني بعض الأبيات الشعرية التي طالبت بشرحها في السبورة.. مرت ساعة الملاحظة هادئة إلى أن دق جرس الخروج، فتوجه المفتش بمحفظته وورقة في يده خط عليها بعض الملاحظات، إذا لم

نقل بعض العتاب، لا أنكر أنه تعامل معي هو الآخر بتوجس كأنه علم بحالتي النفسية قائلا:

- " أعلم يا أستاذة أنك في مرحلة صعبة قد تؤثر على أي إنسان كيفما كان، ولابد لهذا التأثير أن يمس كل ما نقوم به حتى عملنا، سواء كنا نحبه أو لا نحس بالانتماء إليه، وما أكثر ما نزاوله ونحن لا ننتمي إليه، وهنا يكمن المشكل الحقيقي، باعتبار أنني لا أستطيع الجزم في إذا ما كنت تحبين عملك أو لا تحسين بأي رابط تجاهه، لذا سأنصحك بأخذ فترة راحة واستجمام بما أنك مقبلة على الولادة، فمهما كان ما نمر به يا سيدتي لا يعطينا الحق في التعامل مع هذه المهنة بهذا الركود، فلا ذنب لهؤلاء التلاميذ بما تمرين به أو ما تشعرين به، فهم أمانة سلمت إلينا وجب علينا رعايتها، وإلا وجب علينا إعادة تسليمها سالمة دون أذية كلما أحسسنا أننا غير قادرين على تلك المسؤولية، لذا فلتتوقفي لفترة وأعيدي ترتيب أوراقك من جديد.."

كان لكلام المفتش وقع كبير علي، فقد استطاع أن يحرك بداخلي حسا من المسؤولية كان قد بدأ في الاختفاء، تساءلت بعد خروجه لما كنت أعامل تلامذتي بذلك الأسلوب رغم أنه لا ذنب لهم في حدث، فهم بعيدون كل البعد عن كمال، لا يعرفون سبب حزني، بل لا يعرفون ما يقع ولا من أين جئت ولا لما جئت، استيقظت داخلي الرغبة في البكاء مجددا بعد أن قمعتها لمدة طويلة، استسلمت لها بعد خروج الكل، نظفت بها كل الخمول الذي استقر في ذاتي كل تلك الأشهر، فقد مرت خمسة أشهر كاملة على آخر دمعة سقطت من جوفي، خمسة أشهر جافة لم أعرف فيها طعم الشعور بشيء سوى انتفاخ بطني، لقد كان الشيء الوحيد الذي أشعر به، وما سواه كان مجرد صور تمر أمام ناظري لا أعيرها اهتماما، كيف للإنسان أن يصبح بتلك القسوة، القسوة على الذات، القسوة على القلب، والقسوة على الآخرين، لم أجرب طوال هذه المدة الشعور بمن أحب، أو الشعور بمن يبادلني الحب، لقد كان آخر شعور أشعر به هو تلك اللحظة التي تخلصت فيها من سليم في جلسة الطلاق بالمحكمة، الشعور بالحرية التي سلبتها بالقوة، لم أشعر بعدها بشيء، فقد توقفت كل

الشعيرات الحساسة والعصبية في جسدي، كأن مخدرا قويا حقنت به يومها، أتدركون طعم الشعور باللاشعور، إنه طعم اللاطعم أيضا، تفقد معه اللذة في كل شيء، يصبح الطعام مادة مطهية تسد الجوع، والماء مادة سائلة تمنع التخلص من الحياة وتجددها، والنوم إغماءة تفرض نفسها بلا إنذار، والعمل أسلوب فرضته الدولة على عبيد مقابل بعض الدريهمات.. فكرت مليا فيما قاله لي المفتش، فقد كان كلامه صائبا، فلا شيء يخول لي ممارسة عمل لا أقوى عليه، بل من الوقاحة أن أزاول مهنة مثل هذه المهنة بهذا الشكل فقط لأني أحتاج المال.

قررت بعدها أن أتوقف فعلا عن الذهاب للعمل بما أن الدورة الأولى قد أوشكت على الانتهاء، فتوجهت إلى مكتب المدير بعد أن استعدت بعضا من قوتي لأخبره أني سأغيب عن العمل إلى ما بعد الولادة، فتجنب الدخول معي في نقاش حول الأسباب والدوافع، بل أخبرني مباشرة أنه علي تقديم شهادة طبية للمصلحة أبرر بها سبب الرخصة التي أقدمت على طلبها، علمت حينها أن المدير قد علم مسبقا بما سأطلبه من المفتش، فهو لا شك أنه قد سأله عن الحصة التي قضاها معي، ومما لا شك فيه أيضا أنه قد أخبره عن النصيحة التي قدمها لي مشكورا. حملت وزرتي ومحفظتي واتجهت مباشرة للبيت لأحصل على بعض الراحة والاسترخاء بعد هذا اليوم الطويل، لكن ما إن أوشكت على الوصول حتى خطرت ببالي فكرة ليست ككل الأفكار، أو بالأحرى فكرة لا يجب أن تخطر على بالي أساسا..

نعم. سأعود لتلك المدينة الساخنة لأرى ذلك الوجه الذي فطمت عليه منذ زمن، اشتقت لتلك الملامح وتلك التفاصيل، ولعل هذه الرغبة التي استيقظت بداخلي فجأة شاركتها معي نرجس أيضا، فقد زادت حدة ركلاتها بشكل غريب، فهي الأخرى حرمت من قرب والدها مجبرة، تشتاق لليوم الذي ترى فيه أباها وتشم ريحه وتسمع صوته الحنون، لا أعرف لما لم تراودني الفكرة من قبل، أو بالأحرى لما كنت أقمعها قبل أن تطفو إلى السطح، لقد كانت لزيارة المفتش وكلماته فضل كبير في إحياء بعض المشاعر المدفونة بداخلي، ففي كل تلك المدة التي مضت كنت أظن أني قد كرهت كمال، أو على الأقل تقبلت زواجه

بأخرى، وتقبلت ألا أرى وجهه، لكني كنت كمن يذر الرماد في العيون فقط، فالكل يعلم أن صمتي المطبق ذاك كان خوفا من أن أتحدث فأنطق باسمه مجددا، كنت الوحيدة التي كذبت فصدقت كذبتها، نعم لقد اشتقت له، وأسامحه على كل ما قام به، ومستعدة لرؤيته مجددا حتى لو كان في حضن تلك المرأة الغريبة .. أجبت نرجس دون تردد:

- " سنزور والدك حبيبتي "

انتابني شعور غريب لم أشعر به منذ زمن، وكأن بركانا من الأحاسيس استيقظ دفعة واحدة، وهاجمتني الكثير من الأسئلة، لكن السؤال الوحيد الذي ظل يتردد في ذهني ويحبس أنفاسي طوال الطريق هو أفعلا أنا مستعدة لرؤية كمال مجددا مع امرأة أخرى، كأني كنت شبه متأكدة أني قد أجن هذه المرة، لكن الرغبة في رؤيته ستدفعني للجنون أيضا، لم أشتق له طوال الخمسة أشهر الماضية فجاء الشوق كشحنة واحدة ضخمة عوضت كل تلك المدة التي ادعيت فيها نسيانه، بل أحسست في لحظة كأنما هذا الشوق لعنة سقطت من السماء، ظلت تكبر وتتنامى في صمت حتى أعجزتني في دقائق عن الثبات، فأجبرتني أخيرا على العودة منهزمة لمن تخلى عني دون سؤال، كنت أظن أني قد تخلصت منه، فوجدتني أبحث عنه أكثر مما كنت عليه في السابق. تخلصت من شرودي وضبطت دقات قلبي بصعوبة قبل أن أركن سيارتي بجانب منزله، كيف لي أن أنس موقعه، وهو المكان الذي لن يمح من ذاكرتي ما دمت حية، المكان الذي كنت أستحق أن أوجد فيه بدل تلك المرأة الغريبة، المنزل الذي بنيناه في مخيلتنا معا كلما كنا في طريقنا للقرية مرورا بهذه المدينة، والمنزل الذي كنت مستعدة أن أدخله فأدفع مقابله عمري ثمنا.

كانت الساعة تقترب من السادسة مساء، ولا شك أنه سيخرج من عمله بعد دقائق، كنت أعلم أنه غالبا ما يشتغل الخميس مساء، فلم يخطئ حدسي هذه المرة أيضا، ها هو يتقدم بخطوات سريعة نحو منزله، لم أتوقع أن أكون بهذا الثبات والهدوء، ترجلت من السيارة في هدوء بعدما وقف ليتناول مفاتيحه من جيبه، دعوت الله أن يثبتني فلا أسقط

بعدما يتقابل وجهه بوجهي، فناديته بصوت محتشم يكاد يخرج وهو يفتح الباب الخارجي للمنزل

- " كمال "

توقف عن إدارة المفاتيح مصدوما دون أن يلتفت وراءه، لقد علم من تكون صاحبة الصوت، وكيف له أن يخطئ في صوت لطالما ناداه بحب صباح كل يوم ومساء كل ليلة، كيف له أن ينسى صوت من كانت تسكن قلبه ومن تمناها زوجة ذات يوم، كيف له أن ينس صوتا أخبره ذات يوم أنه ذاهب بلا رجعة.. استدار دفعة واحدة في جحوظ كمن صعق بملك الموت :

- "رهام ؟ "

نعم رهام يا كمال، رهام التي لم تسأل عنها بعد رحيلها، رهام التي لم تتردد في استبدالها بعد فترة وجيزة، رهام التي اشتاقت لك رغم البعد والجفاء، رهام التي تحمل في أحشائها نرجس خاصتك.. لم أستطع قول شيء مما كان يفيض بداخلي في ثورة يريد الخروج، والبوح، والإفصاح، يريد أن يشكو فتربت على صاحبته كما كنت تفعل، ما استطعته هو البكاء في صمت دون أن أزيل عيني من على وجهه كأني أخاف أن تطير تلك الصورة فلا أستطيع رؤيتها مجددا، تمنيت لو عانقته بكل ما أوتيت من قوة حتى تختلط أنفاسنا وتفاصيل أجسادنا كما كنا من قبل، تمنيت لو أشم رائحته التي أعشقها لكني اكتفيت بذلك من بعيد، ضبطت روحي التي تكاد أن تزهق من بين أضلعي هروبا إليه، واستعرت ابتسامة لا تمت لي بصلة:

- " أيعقل أنك قد نسيت رهام يا كمال؟"
- " وما رأيك أنت ؟ "

ابتسمت في هدوء ابتسامة شوق حينما تذكرت أنه كان يردد هذا السؤال على مسمعي كلما اتهمته بشيء لا يجدر بي قوله، فناولته يدي ليصافحها بعد تردد كبير، توقعت

صراحة أن يخطفها فيضمني بعدها كما أشتهي، لكني سرعان ما تذكرت أنه لا يستطيع ذلك حتى لو أراد، فهو أمام منزل امرأة تدعى زوجته، حاول هو الآخر إخفاء دهشته من هذا اللقاء غير المتوقع، وما إن أراد قول شيء حتى انتبه لبطني المنتفخة، تغيرت ملامح وجهه فجأة فعم الحزن عليها محاولا دفعه ببعض الأسئلة عن حياتي وسبب هذه الزيارة، فقد تساءل دون خجل كأنه لا يعلم أنه الشخص الذي أحبه، والشخص الذي وعدني أنه لن يتوقف عن زيارتي حتى لو كان مع امرأة أخرى. حاولت السيطرة على اندفاعي لكن قوة كبيرة كانت تدفعني لإخباره بالحقيقة بعدما سألني عن عدد أشهر حملي، فوجهت له سؤالا آخر كنت في حاجة للجواب عليه، سؤالي عن سبب زواجه بتلك السرعة دون أن يكلف نفسه عناء السؤال عني، توقعت فعلا أن يخرج من هدوئه المصطنع بعدما وجهت له اللوم عبر السؤال فقال في غضب لم أعهده منه:

- " بأي حق تطرحين هذا السؤال يا رهام؟ أتعتقدين أنك الوحيدة من تملك حق الخيانة والتخلي والزواج وتكوين الأسر، ألم تسألي نفسك يوم كنت تعقدين قرانك ما شعور ذلك المغفل الذي كان ينتظر عودتك، ينتظر طلب صفحك، وينتظر حضورك إلى مكتب العدول كل يوم منذ آخر لقاء لكما حيث تركته ينتظرك، لم تكلفي نفسك أنت الأخرى عناء البحث عني ومواساتي وإحياء ما تبقى من أحلام هدمت الحياة نصفها فأجهزت أنت على النصف الآخر، كيف سولت لك نفسك تركي بتلك الحال فيما كنت أنت تحيين حفلك سعيدة مع أهلك وزوجك، ولا تحاولي إنكار ذلك فما إن انقضت أيام قليلة حتى أقدمت على الحصول على مولود منه، وتأتين اليوم لتلوميني على حياة بئيسة اختارها لي القدر لأواسي بها نفسي وأعطي بها قيمة لحياة فقدت قيمتها بسببك؟ لا حق لك اليوم يا رهام في اللوم والشكوى، ولا حق لك حتى في رؤيتي وأنت تحملين جنين شخص آخر، غادري ولا تعودي مجددا.."

لم تقو رهام على حمل نفسها وكثمان سر حملها على كمال بعدما سمعت منه كل ما قاله، أمسكت يداه بقوة بعدما أراد الدخول لبيته تتوسل بقاءه، لم يعد هناك ما يمنعها

من إخباره أن الحمل الذي لامها عليه يخصه، وأنها ظلت عند وعدها فلم يمسسها غيره ولن يسمها رجل غيره مستقبلا، ما إن دربت شفاهها على التفوه بالحقيقة حتى فتح الباب من خلفهما فسحبت معه يداها من فوق يديه بسرعة خاطفة توقفت معها أنفاسهما معا، فظهرت تلك المرأة الغريبة من خلفه مجددا لتقف حاجزا بينها وبين كمال للمرة الثانية:

- " ماذا هناك يا كمال ؟

وبنظرات ثابتة يملؤها الأسى والألم والحسرة والعجز أجاب زوجته :

- "لا شيء يا عزيزتي، فالسيدة تسأل عن منزل للكراء فحسب، وقد أخبرتها أني لا أستطيع مساعدتها.. وداعا سيدتي ."

أقفلا الباب وراءها بعدما تركاها تتراجع خطوات للوراء مصعوقة بالتبرير الذي قدمه كمال لزوجته، نعلم أن ما قام به كمال هو ما تتطلبه طبيعة الوضع وما تفرضه العادة والأعراف، فمن الطبيعي أن ينتصر لزوجته، وأن يدفع كل ما من شأنه أن يهدد علاقته بها، لا نعلم ما إذا كان يحبها فعلا، لكننا نعلم حق اليقين مدى وعيه بأهمية المسؤوليات التي تحيط به، فهو الذي كان حريصا في علاقته معها من قبل لا يمكن أن يغير أسلوبه بين ليلة وضحاها ومن المؤكد أنه حريص في علاقته الجديدة كل الحرص أيضا، تفهمت رهام ردة فعل كمال كل التفهم، وكيف لا تتقبل الوضع الذي كانت سببا فيه، كل ما علق بذهنها هو اتهامه لها بحملها من غيره، فقد تمنت لو أخبرته بحقيقة اتهامه، وقد أوشكت على فعل ذلك لولا خروج تلك المرأة مجددا، تأكدت تمام التأكد أن قوة خفية تحرص على عدم التقاء هذين الاثنين، قوة تعمل على تفريقهما وتوسيع الهوة بينهما كلما حاولا إصلاح ما فات، قوة ستهزمها قوة أخرى فتكسرها يوما مهما كانت قوتها، إنها نرجس. استجمعت ما تبقى من كرامتها المنهوكة التي لم تعتبر لها اعتبارا يوما أمام ذلك الرجل، وما كان لأي محب أن يعتبر اعتبارا لكرامته أمام من يحب، كما لم يعتبرها هو الآخر يوما رغم كل ما عاناه من أهلها، كل ذل في الحب كرامة، لأنه من المفترض أن يصنع ذلك الحب من القلبين قلبا

واحدا، وروحا واحدة، وجسدا واحدا، لكن ما إن يتوقف القلبان عن الحب ومساعدة بعضهما على الاحتفاظ به والرغبة في التخلي عنه حتى تدق تلك الكرامة أجراسها مجددا، وما إن تدق أجراسها حتى نجد كل المشاعر الأخرى مجبورة على الموت. اضطرت أن تغادر للمرة الثانية هذا المكان مكسورة الجوانح محطمة المشاعر التي أيقظتها بعد عناء، لكن الفرق هذه المرة أنها غادرت مطرودة أبشع طرد من حياته، بل ودعها دون أن يترك لها مجالا لتودعه بطريقتها.

لم تنتبه رهام للألم الذي كان يحمله كمال أيضا بداخله.. ظنت في لحظة جارفة أن الكره من كان يدفعه لقول كل ما قاله.. لم تنتبه لعينيه اللتان برقتا لحظة وصولها.. ولا لصوته الحنون الذي نادى باسمها يشقه الحنين إلى ماض غاب عنه مجبورا.. ولا لقلبه الذي أوشك على التوقف ما إن لامست يده يدها.. فقد تمنى هو الآخر مثلها أن يضمها إلى صدره الأجوف بعد غيابها.. ذلك الصدر الذي لطالما شعر فيه بحنان لم يعهده من قبل إلا في صدر واحد، هو صدر أمه من قبلها.. دعا الله أيضا في صمت مطبق أن يكون كل ما حدث في لحظة خاطفة كابوسا استيقظ منه أخيرا ليجد المرأة التي يحبها أمامه تدخل معه منزله لتزيل عليه الغبار العالق فيه منذ رحيلها.. وتمنى لو لم تكن من في الداخل امرأة غيرها تسأله العطف، والحنان، والحب، والود، والرحمة، وكل تلك الواجبات الزوجية .. تمنى لو كانت معه كل تلك المدة ليخبرها ما تجرعه من ألم بعد فقدها وما عاناه من يأس بعد رحيلها وما ذرفه من دمع في كل مرة اشتاق لها فيها.. فسكوته لا يعني أنه لم يتألم على فقدانها أيضا.. لكن الفرق أنه لم يجد من يشكو له حزنه.. ولا من يمسح على رأسه.. ولا من يبرر له غيابها .. فما كان طردها وتوديعه لها سوى خوف من انبعاث ذلك الألم من جديد.. ألم لم تخمد ناره بعد.

سألت القدر بحرقة لما حال بيني وبينه مرة أخرى، لما غادر دون أن أخبره أني ما زلت أحمله بين جوانحي، لما لم يشعر بوجود نرجس بداخلي، يا رباه فقد تعبت، تدخل يا الله فلا سبيل لرد قضائك سواك.. طلبت من الله بعد أن استنزفت قواي أن يخلصني من هذا

الألم، وتوسلت فؤادي من شدة الألم أن ينتزع الحب رحمة بي، فما زاد إلا تعلقا وشوقا ورفرفة رغم كل ما عاناه، ومنعت عقلي من التفكير فيه فما رأى إلا أن يسرع في ضخ ذكراه، وحاصرت أنفي بمناديل أقمع دماءه المتقاطرة كمدا، كما رجوت عيني أن تكف دموعها، فناشدتها ألا تدمع، فأبت وما ظلت إلا مصرة على تطهير ما علق بجفونها، أغمضتها كي لا تفيض فما زادت إلا وأمطرت، أيقنت أنها لن تكف عني حتى تتأكد من مقتلي، فلا شك أنها تبكي من ألم الحنين وهو معها فكيف وهو في لحظة صار غريبا عنها، مرّ علي أن أودع زائرا ألفته فكيف الذي حملته بين أضلعي، فاستسلمت للألم كعادتي وأطلقت لدموعي العنان حتى جف منبعها، فغفوت لعلي أجد في أحلامي بعضا من ريحه، يلاقيني، يسامحني، يضمني... لكن غفوتي لم تدم لساعة كاملة. فوجدتني مستيقظة من جديد أحمل ورقة وقلما، ورقة أخط فيها كل ما عجزت عن إخباره به، ورقة تحمل ما يحمل قلبي من أمل موؤود، وحلم مفقود، من ألم يقتات مني ويبعدني عن الحياة كل يوم خطوة، فالألم أشد أنواع المرض فتكا، وإني لأشعر أنه سبب نهايتي.. دونت فيها كل ما أحتاج قوله من البداية إلى النهاية فلعلها قد تكون آخر تدوينة لي في سماء الحب الذي طردت منه.

أنهيت كتابة رسالتي لكمال في جوف الليل، أخبره فيها بكل ما حدث، وأعترف له بسر نرجس الذي كنت أنوي الاحتفاظ به لنفسي، فلا حق لي في كثمان أمر يخصنا معا، حتى لو كان فيه دمار لأسرته، ولنرجس الحق أيضا في الحصول على جزء من ذلك الحب الذي يخص به عائلته، ظلت مسألة واحدة عالقة، هي مسألة توصيل الرسالة، فلا سبيل لتكرار نفس المواقف، ولا قوة لي بعد الآن تمكنني من الوصول إليه، فقد تيقنت أمسا أن كمال جزء وجب دفنه في أعماقي، فلا أمل لي مجددا في إرواء عطشي منه، إنها الحقيقة التي ترفعت عن تصديقها في كل مرة أوهمني فيها الأمل باجتماعنا رغم انسداد سبل ذلك، فالواقع شيء وحب الروايات والأفلام شيء آخر، لقد كان من الطبيعي أن يلجأ لإنسان آخر يسد ثغراتي، وكان من الطبيعي أن يتناسى وجودي بعدما تخليت عنه مقابل سعادة الآخرين، فتضحيتي تخصني لا علاقة له بها، ولا ضرورة تحتم عليه تقبلها، إني أخيرا وبعد عناء تيقنت أني قد تخليت عن أمل لقياه، ولعلي أخيرا أدركت ما أدركه هو عن حقيقة

التخلي، التخلي عما يؤلمنا، عما ليس من نصيبنا، عما يخص غيرنا، عما لا ننتمي إليه. حملت رسالتي تلك وخرجت في الصباح الباكر صوب وجهة يفصلني عنها أشهر طويلة، شخص لطالما كان صديقا وفيا لي، شخص يدرك معنى الحب هو الآخر، شخص يعرف معنى الفقد، معنى التخلي، ومعنى الحب في صمت، إنها رغد.

طرقت باب منزلها من جديد، المنزل الذي كنت أقصده كلما احتجت شيئا من رغد، منزلي الآخر الذي فقدته دون وعي، وتوقفت عن زيارته بلا سبب، لعل فقدان صداقة رغد سبب أيضا في تعاستي، فكل منا يحتاج ذلك الشخص الذي لا رابط دموي له معه وما يجمعه به سوى رابط روحي نتشارك به كل تجاربنا البائسة، إنها الصداقة وهي نوع آخر من الانتماء. تساءلت كعادتها عن الطارق بصوتها الجهوري الذي اشتقت إليه، ففتحت بسرعة بعدما لم تتلق جوابا مني، تعجبت من وجودي أمامها حتى كادت تنسى أن تعانقني، إنها أنا أيتها المغفلة، جئت إليك بعدما أغلقت كل الأبواب في وجهي، بعدما مات الأمل، وبعدما فقدت كل شيء كان يلهيني عنك، وأعلم أنك على غرار البقية ستسامحينني بعد أن تلقي علي كل أنواع العتاب والمنّ .. قلت كل ذلك دون أن تسمع منه شيئا، فلا تبرير سيجدي نفعا معها ولا تبرير يشفع لي أمامها. عانقت جسدي الهزيل، وقبلت خدي كما كانت تفعل في السابق، طلبت مني الدخول بعجرفة كعادتها مع إلقاء محاضرة طويلة علي بعدما قلت لها أني أحتاجها في أمر:

- " آهاااه، إذن لو لم تكوني في حاجتي لما تذكرت وجودي، تعلمين أني لا أستطيع رفض طلب لك، لذلك جئت بعدما وجدت كل الأبواب موصدة في وجهك، لما تبدين في هذه الحال، ألا تأكلين طعاما، ما بال زوجك يحبك وأنت بهذه البشاعة، لما فكرت في الإنجاب وأنت لا تملكين جسدا قادرا على ذلك، فسبعة أشهر من الحمل كانت كافية لتصبحي بهذا الشكل..."

لم تتوقف عن الثرثرة كعادتها لكني لا أنكر أني اشتقت لاستهزاءاتها المتكررة التي كانت تشعل في حماسة الارتقاء بمظهري وحسي الأنثوي، لم أجب على كل ما قالته، فقد كانت

قدرتي على الإجابة منعدمة، لم أستطع إخبارها بكل ما تجهله من أحداث، فقد صار كل ما حولي يدور دون توقف وكأني سأفقد الوعي بعد ثوان، وكانت آخر كلماتي بعدما استلمت الرسالة:

- " أخبري كمال.. أن نرجس.. ابنته "

سقطت رهام بطولها على الأرض دون حراك، كأنها غصن ميت قد من جذع شجرة، تمتد على ظهرها ببطنها المنتفخة ويداها متحررتان من أثر الحياة، جسد شاحب لا روح فيه، وجفنين مترهلين بهما أثر كدمات زرقاء، كيف لشخص لا يقبل طعاما. ولا يشرب ماء، ولا ينام ليلا، وينزف دما ولا تخلو روحه من جلد الذات أن يستمر جسده في هذه الحياة دون أن يهن أو يستسلم للزوال، فرهام منذ زمن رفضت رعاية أمها لها، ورفضت كل رغبة في الحياة وما عيشها لمدة سبعة أشهر بعد فراق كمال سوى بفضل شيئين، الأول نرجس، والثاني الأمل. صعقت رغد التي كانت تمازحها قبل برهة من الزمن بهول المنظر الذي أمامها، أمسكت فمها وابتعدت خطوة للوراء ملقية الرسالة في الأرض تجهل كيفية التصرف أمام ما أصاب صديقتها، ظنت في لحظة أنها قد ماتت، لكن سرعان ما اكتشفت أنها حية بعدما تحسست نبضها وتنفسها بأصابعها، اتصلت بسرعة بسيارة الإسعاف بعدما ناولتها أمها الهاتف، ورافقت صديقتها للمستشفى بعدما طلبت من أهل رهام اللحاق بها للمستشفى بعد إخبارهم بما حدث، اجتمع الكل في المستشفى بعد ساعة من الزمن، لم يتوقع أحد ما حدث لرهام، كانت علامات الخوف بادية على الكل، وكأن الكل يعلم أن المرأة التي بالداخل قد تفقد حياتها في أي لحظة، وأن إغماءها غير طبيعي بعدما وصلت لتلك المرحلة من الوهن والضعف، كانت حال أم رهام تبعث الشفقة في القلوب، فقد أحست أنها قد تفقد ابنتها للأبد، خصوصا بعدما أخبرها الطبيب أن رهام مضطرة أن تلد ولادة قيصرية مبكرة للحفاظ على الجنين، وفي هذه الولادة خطورة على الأم فصحتها لا تساعدها على الإنجاب، لذا وجب توقيع بعض المستندات التي تقبل فيها عائلة المريضة الخوض في هذه العملية، تنازعت الأم رغبتان، الأولى رغبة في الحفاظ على حياة ابنتها بطلب إجراء عملية إجهاض

لرهام، والثانية الرغبة في الإبقاء على الشيء الوحيد الذي سيعيد لرهام الحياة والسعادة التي فقدتها، وبما أنها تعلم علم اليقين أن رهام لو كانت مستيقظة لما سمحت بإجهاض نرجس، فقررت الأم توقيع أوراق العملية دون تردد. لكنها طلبت من الطبيب أن يسمح لها بزيارة ابنتها قبل ذلك، فقد تكون النظرة الأخيرة التي تلقيها في وجه ابنتها.

عم التوتر أرجاء المستشفى، فقد حضرت كل عائلتها المقربة، الأب، والأم، والأخوة، والأعمام، والجدة، والخالات... لكن من وجب عليه الحضور فعلا غائب دون قصد، فلو كان يعلم أن اليوم يخص ميلاد نرجس، ميلاد الحلم، لحضر. ظل الكل ينتظر في خوف لساعات، لا يعرف أحد لما تأخر الطبيب وأعوانه في الخروج من قاعة العمليات، لكن رغد قامت بما يجب عليها القيام به بعدما تذكرت كلام الطبيب، خرجت في سرعة كبيرة متوجهة لمحطة سيارات الأجرة، تسابق الزمن للوصول إلى كمال قبل فوات الأوان، اتبعت العنوان الذي دونته رهام في الرسالة، كانت تدعو الله في كل ثانية قبل وصولها والدموع في عينيها أن تولد نرجس بخير، وأن تظل في حماية أبويها معا. تمكنت من الوصول أخيرا وبعد عناء إلى بيت كمال، طرقت الباب بقوة دون أن تعير سكان الحي ولا من يقطنه اهتماما، جاءتها الإجابة كما توقعت من زوجة كمال، اندهشت المرأة الغريبة كما تناديها رهام دوما، فلا امرأة في الكون تستطيع تقبل امرأة أخرى تسأل عن زوجها، لكنها فعلا تمتاز برجاحة عقل حينما مكنت رغد من رقم كمال ومكان تواجده، فكل عاقل يرى رغد في تلك الحال سيعرف أن الأمر طارئ لا يقبل تأجيلا. اتصلت رغد بكمال بعدما انقطع اتصالها به منذ زمن بعيد، توجس من تلك المكالمة التي تطلب فيها حضوره بسرعة البرق، وأحس هو الآخر أن أمرا خطيرا يخص رهام قد حدث. جاء دون تأخر للمكان الذي تنتظره فيه وما إن رأى وجه رغد والدموع تملؤه ورسالة في يدها حتى أمسك قلبه بيده اليمنى موقنا أن رهام قد أصابها مكروه. حكت له في طريقهما كل ما حدث لرهام منذ أن غادر حياتها، وكشفت له خبايا ظنونه السيئة فيها بعدما تزوجت بغيره، علم أن رهام لم تتزوج بغيره حقيقة، بل كان سبيلا لتحقيق رضى أهلها في البداية وللحفاظ على حياة ذلك الجنين بعدها، وأن الأمل في عودته لم يفارقها يوما، حتى بعدما اكتشفت زواجه من امرأة أخرى، كاد الألم والندم

يقتلانه رغم عدم مشاركته في مصائبها، لكن الندم جاء بعد فوات الأوان. فقد وصلا للمستشفى بعد ساعة من الزمن وفي الوقت الذي يقابل خروج الطبيب من غرفة العمليات تماما، حيث كان يخبر البقية بقلب صلب أن الجنين بخير وأن رهام قد ماتت.

سقطت أم رهام على الأرض سقطة واحدة، واكتفى الآخرون بالبكاء والنواح، سأل الأب الله اللطف والصبر، وتعانق الأهل فيما بينهم ليواسوا بعضهم بمصابهم الجلل، كانت حالتهم تدمي القلوب، خصوصا أخواتها اللواتي لم يتوقعن يوما أن تغيب عنهم أختهم الكبرى بهذا الشكل، أما رغد فتدمرت من هول ما سمعته في المدخل، فخرت جالسة تغمض عيناها بقوة وتجهش في البكاء بصوت مرتفع كطفلة صغيرة، فقد استعادت صديقتها وفقدتها في اليوم نفسه، بينما كمال لم يسمع له حس، بل لم يكن بجانب رغد الذي دخل رفقتها، فقد قصد غرفة الولادة حيث توجد رهام مغطاة بلحاف أبيض، ذهب ليلقي على ذلك الوجه آخر نظرات الحب التي تمنتها رهام قيد حياتها.. أزاح الغطاء عن وجهها ورماه بعيدا.. صار يقبلها في كل مكان من وجهها ويطلب منها الاستيقاظ دون جدوى.. يخبرها كم يحبها ويعدها بأن يرعاها هي وابنته إن استيقظت.. ظل يضغط بكل قوة على موضع قلبها ظنا منه أنها مجرد سكتة قلبية خفيفة.. لكن رهام ظلت جثة باردة هامدة بلا حراك.. تأبى أن تحس بوجود كمال الذي لطالما انتظرته.. يبدو أنها فعلا اليوم قد تخلت عن كمال في الدنيا.. لكن كمال نفسه لا يعلم أن أملها فيه لم يمت بموتها.. فلا شك أنها تنتظره في الجنة.. لم يتخيل أحد منهم ما كان مقدرا لها، لكنه القدر.

مر شهر على وفاة رهام وولادة نرجس التي ظلت لأيام في قنينة العناية المركزة، تقبل بعدها الأهل مجبرين سنة الله، بينما بدت الحياة في كل بقاع الأرض بعدها عادية، إلا عند أمها وكمال، لم يفكرا من قبل قيد حياتها أنها قد تموت يوما، ونسيا أن الموت سنة الله في خلقه إلى أن يرث الأرض ومن عليها، إنها النهاية الطبيعية لدورة حياة الإنسان، وما رهام سوى دورة من تلك الدورات، دورة لم تعتني بها رهام فسرعتها لتصل حدها الأخير بهذه السرعة، دورة لم يعي من يحبها أنها قد تنتهي في أي لحظة. لم يتبق من ذكرى رهام شيء

أقوى من نرجس، وكأن دورها في هذه الحياة جاء لإنجاب تلك الصبية فقط، وما إن حان وقت خروجها للحياة حتى غادرتها هي في الوقت ذاته، تكلفت أم رهام بنرجس مباشرة بعدما استعادت وعيها، وطلبت من كمال أن يزورها كلما شاء إلى حين يستوي عودها فتصبح قادرة على العيش معه، كانت اليوم زيارة كمال لنرجس بعدما استعاد قوته هو الآخر، فقرر أن يأخذ معه ابنته لزيارة قبر أمها بعدما اكتمل شهر على ذفنها، وتذكر قراءة الرسالة التي تركتها له قبل وفاتها، والتي فضل أن يقرأها أمام قبرها وفي يده نرجس والدموع تملأ عيناه.

" كمال. يا لشدة عشقي لهذا الاسم، لا شك أنك كنت تسمع ندائي لك به كل ليلة، وكنت تشعر بنغمات أحرفه ترقص بين طيات السحاب لتصل لجوف أذنك، كم كانت عقيمة تلك الليالي التي لم تستطع إنجاب سحابات تحملني إليك، وكم كان الصباح ضعيف القدرة عندما لم يكن قادرا على توصيل أنهار الدمع التي ذرفت لك، وكم كانت الرياح خائنة عندما تلاعبت بأنفي دون أن تحضر لي عطرك.. أنا أكتب لك اليوم بكل ما تبقى لي من إحساس، فالنصف نفذ معك حينما كنا معا، والنصف الآخر تاه وهو يبحث عنك ليعيدك، وما تبقى لي سوى بعض النثرات القليلة منه لأكتب لك بها هذا الاعتراف، أعلم أنه لربما سيزيد كرهك وعتابك لي بعد قراءة هذه الرسالة، ومتيقنة أيضا أن غضبك سيزول يوما فتسامحني، لكن لا مهرب أمام الحقيقة اليوم، كنت أفضل قولها أمس أمامك لأحظى بضمة تعيد ترتيب أضلعي، لكنك فضلت تأجيل تلك الضمة لوقت آخر، سأنتظرها يوما ما طبعا، فلا تتأخر طويلا.

إن ما لمتني على حمله في أحشائي أمس ابنتك يا كمال، إنها الطفلة التي انتظرتها مطولا، الطفلة التي كنت تخبرني مرارا أنك ستتكلف بتربيتها بدلا مني لأني لا أجيد التربية، الطفلة التي وعدت باقتناء القصص والكتب لها منذ سنتها الأولى، الطفلة التي خفت على تقبيل الغرباء لها في حال غيابك عنها.. يبدو أنك تراجعت عن وعدك وتركتها لي لأربيها، لكن أعدك أني سأكلفك عاجلا أم آجلا بذلك، فلا أحد سواك سيرعاها بشكل سليم، فأنا اليوم بالذات وبعدما طردتني من حياتك، وأسمعتني كلمة الوداع تلك أشعر أخيرا أني قد تحررت

منك، وأني قد مزقت الخيط الذي يربطني بك، ولربما الرابط بهذه الحياة أيضا، فمن الحب ما قتل، ومن حبك أيضا ما فتك بي، فبالرغم من كل ما قمت به معك، وبالرغم من أنك تظن أني قد تخليت عنك يوما، فلا شيء يعطيك الحق في إنكار أني أحببتك بجنون، جنون دفعني لفقدان الرغبة في الانتماء لهذه الأرض وأنت بعيد عني . أسفة يا كمال على التأخر في الإفصاح عن هذا السر، وأسفة على البوح به بهذه الطريقة، أعلم أنك في حاجة الآن لترى وجهي الذي اشتقت له، وأعلم أنك ترغب في سحب الكلام الذي قلته لي ليلة أمس، وأعلم أنك تحبني وما زلت تحبني، وما زواجك إلا سنة فرضتها الطبيعة.. سامحني يا كمال على كل الوعود التي نكثت بها، وسامحني على تعلقي بالأمل في كل مرة، وسامحني على إنجاب نرجس بعيدا عنك، ثم سامحني على التخلي عنك مرة أخرى وعن المكان والزمان الذي تمنيت العيش فيهما معك، فقد استنزفت ما خلقت به من قوة، وحان الوقت للذهاب إلى مكان آخر حيث سأنتظرك مجددا، فلا قوة ستمنعنا هناك لأن الله يعلم أني إليك أنتمي. اعتن بنرجس يا كمال .

حبيبتك رهام.

مؤلم ما مر به هذان الاثنان، فالكثير منا من سيتهيأ له أنهما لم يحبا بعضهما بالشكل الصحيح، بل تماديا في أذية بعضهما فحسب، وتخليا عن بعضهما عند أول مفترق، لكن بعيدا عن لغة الخيال والأفلام الرومانسية، فكل منا يعلم أن رهام تخلت عن كمال مجبرة، وما أكثر ما أجبرنا عليه تحت مسمى الأعراف والتقاليد أو ثنائية السخط والرضى، وما كانت تضحية رهام بسعادتهما في سبيل سعادة الآخرين وتعنتهم سوى نقطة كشفت أن الكثير منا يتبع ظلا ليس ظله، وقدرا ليس مقدرا له، ويرفض تصديق أن تلك النقطة التي حوّلت مسار الأمور ما هي إلى سبب لتحويل الأقدار للمسار الذي رسم لها الله. أما كمال فلم يخن رهام كما اعتقدت ولم يتسرع في استبدالها، إنها الحقيقة، حقيقة الحياة وسننها، فلا شخص عاقل سيوقف حياته بعدما رأى أن الطرف الآخر قد بنى حياته في ركن آخر بدونه مهما وصلت به درجة الحب، أما عن الفرق بين حب كمال ورهام، فالأول كان قويا فرضي فعاش سليما لسلامة ضميره من العتاب، والثاني كان ضعيفا فمات قهرا لمعرفته أنه كان السبب في الفراق، ولا ننس أيضا أن قبل كل تلك الأحزان التي علقت في أذهانها حول هذا الحب فقد عاش الاثنان حظا وفيرا من السعادة أيضا، سعادة جعلت رهام تظن أنها تنتمي لكمال لا لغيره، سعادة أنستها انتماءها لمدينتها، لأهلها، لواجباتها، لوعودها السابقة... إنه الانتماء، آخر درجات الحب، ذلك الشعور بالانضمام الكلي لشيء يشبهنا، يشبه أحاسيسنا، يبنينا، ويكوّننا، قد يكون انتماء لوطن، أو انتماء لأهل، أو انتماء لذات، وقد وجدت رهام انتماءها الحقيقي في كمال، فأبت أن تعيش خارج دائرة ذلك الانتماء، دون أن تعي أن الإنسان في الحقيقة ينتمي لمكان واحد، هو السماء.

عزيزة فرسان

للحب درجات

" هل أنت مستعدة للحب ؟

قبل أن أرفع سبابتي عن شفتيك الورديتين اسمحي لي أن أخبرك أنك ما إن تجهري بقبولك حتى تكوني قد خطوت أولى الخطوات في درجات الحب، وأن لا مكان للتراجع أو الانسحاب، ستعيشين حياتك ترتقين هذه الدرجات بشغف العشاق إلى أن تلغي شأوا عظيما يؤهلك لقطف ثمار الحب اللذيذة التي لا يتذوقها سوى الراسخون في الحب والحذاق في أمور الحس والشعور..

رهام. أعطني يدك وادلفي معي للدرجة الأولى هناك تخبرين ألوانا جديدة من الشعور لا عهد لك بها .."